طبعة ثانية مزيدة ومنقحة

ليون كاهون

رحلة إلى جبال العلويين عام 1878 م

تقديم
الأستاذ الدكتور
سهيل زكار

ترجمة:
مها أحمد



رحلة إلى جبال العلويين
عام 1878م

ليون كاهون

رحلة إلى جبال العلويين
عام 1878 م

التكوين

- ليون كاهون
- رحلة إلى جبال العلويين 1878 م
- ترجمة : مها أحمد
- تقديم :الأستاذ الدكتور سهيل زكار
- الناشر :التكوين للنشر والتوزيع
بيروت - ص. ب : 80344
دمشق - هاتف : 0112236468
- البريد الإلكتروني : taakwen@yahoo.com
● لوحة الغلاف: ل. فريجامي نقلاً عن رسم للمؤلف .

Bahloulié

Sahioun

LATAKIE

Djebel Smeghié

Djebel el Akraa

Beit Yachoud

Vallée de Beit Yachoud

Plaine broussailleuse

MER MÉDITERRANÉE

DJEBLÉ

Echelle

مخطط لجبال العلويين - الجزء الشمالي 1878م- المؤلف



تقديم
بقلم الأستاذ الدكتور
سهيل زكار

حظيت الحواضر الكبرى في بلاد الشام باهتمام المؤرخين والإخباريين، وأهملت المناطق الجبلية، و لم تأت المصادر على ذكر ما حدث فيها إلا بصورة هامشية، وكانت المناطق الجبلية التي فصلت ما بين سورية المجوفة والمنطقة الساحلية قد عرفت منذ العصر الأموي باسم جبال بهراء، لأن معاوية بن أبي سفيان قد أقطعها إلى قبيلة بهراء اليمانية، لكننا لا نعرف بالتأكيد ما الذي نجم عن هذا الإقطاع، ولا عن أحوال السكان وشؤوهم بشكل عام، وظل هذا هو الحال حتى أواخر القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد-، ففي هذا القرن نشطت بيزنطة في ظل حكم الأسرة المقدونية، التي شنت ضد بلاد الشام ما عرف باسم صليبية القرن العاشر، وكان من محصلات هذه الصليبية احتلال أنطاكية، واجتياح مدينة حلب أيام سيف

الدولة الحمداني، واحتلال معظم الحواضر الساحلية، ومن جملتها اللاذقية، وهكذا جرى الاهتمام بجبال بهراء، حيث هناك إشارات عند يحيى بن سعيد الأنطاكي إلى بعض الكيانات السياسية في بعض القلاع.

وحكى ابن العديم في كتابه بغية الطلب، أنه بعد الاجتياح البيزنطي المدمر لمدينة حلب، استدعى سيف الدولة الحرانيين للقدوم إلى حلب، والمعتقد أنه قصد بالحرانيين أتباع مذهب محمد بن نصير النميري، الذي كان من تلاميذ الإمام الشيعي الحادي عشر، وقدم الحرانيون، لكنهم اضطروا إلى الهجرة نحو الغرب، ولم يسكنوا مدينة حلب لأسباب أهمها ما ألم بسيف الدولة من شلل ثم موته، وبعد ذلك الاضطرابات والصراعات على السلطة مع التدخل البيزنطي المتواصل، وازدياد نشاط قبيلة كلاب، وظهور الفاطميين على مسرح الأحداث في بلاد الشام، وسعيهم للاستيلاء على حلب.

وأثناء هجرة الحرانيين نحو الغرب، لجأوا إلى منطقة جبل بهراء، ولم يتمكنوا من الاستقرار في المنطقة ما بين

أنطاكية وحلب، لتمركز الدروز في هذه المنطقة، ونحن لا نملـــك ما يكفي من معلومات حول الاندماج الاجتماعي وأعمـــال التحولات المذهبية في جبل بهراء، والذي عرفناه مـــن محصلات هو تحول الغالبية العظمى من سكان هذا الجبل إلى مذهب محمد بن نصير، وبعد ذلك شمول أعمال الـــتحول هذه، والتكوين الجديد وامتداده شمالاً وجنوباً، شمالاً حتى حدود منطقة أق سراي في تركية اليوم، أي إلى ما بعد طرسوس، وجنوباً حتى طبرية، مروراً بشمال لبنان، فقـــد غـــدا الجبل اللبناني نصيرياً، وظل هكذا حتى مطلع القرن الثامن الهجري، ففي هذه الحقبة اشتبك «الجبليون» أكـــثر من مرة مع جيوش السلطنة المملوكية، وألحقوا بها الهزائم المتوالية حتى ما بعد معركة شقحب، حينما جردت السلطنة جيوشها ضدهم فأبادتهم لا سيما في جبال لبنان.

وكـــان مـــن عوامل التحرك في الجبل هو التبدلات السياســـية فيه، ففي القرن الخامس للهجرة قامت شعوب الغُزّ التركمانية باجتياح بلاد الشام، مما تسبب بزوال دولة بـــني مرداس في حلب، وأرغم أعداداً كبيرة من الكلابيين

على دخول جبل بهراء والاستقرار هناك في مناطق حملت الانتساب إلى قبيلة كلاب، ولا سيما منطقة القرداحة (البلدة الحديثة)، ولم يتح لسكان الجبل إقامة كيانات سياسية، لأنه ما إن فرغ الغُزّ من تدمير بلاد الشام، حتى وصلت الحملة الصليبية الأولى.

وفي قرني الحروب الصليبية احتل الصليبيون العديد من القلاع على السفوح الشرقية والغربية لجبال بهراء، وفي الوقت نفسه تمكن أتباع الدعوة الإسماعيلية الجديدة من السيطرة على قلاع القمم في الجبل، واستمر هذا الوضع حتى ما بعد معركة عين جالوت، حيث استطاع الظاهر بيبرس أن يزيل الكيانات الإسماعيلية، ومن ثم السيطرة على قلاع الدعوة، وهنا جاءت الفرصة، وتحرك «الجبليون» أو بالحري «الجرديون» حسب المصادر المملوكية، لكن لم تواتهم الفرص، وكانت أعمال الإبادة المريعة، التي أثرت تأثيراً بالغ الخطورة على لبنان، حيث تمكن الموارنة من جانب والدروز من الجانب الآخر - وهو الأدنى -من شغل الفراغ الهائل الذي حدث.

والمـــواد المتوفرة لدينا عن العصر المملوكي ثم العصر العثماني قليلة جداً، لكن يبدو أنه في هذه الحقبة زال اسم «هـــراء» وحلّ محله اسم «النصيرية»، وذلك حتى أواخر العصـــر العـــثماني حيـــث ظهـــرت تسمية جديدة هي «العلويـــون» وتعلـــق هذا بالدرجة الأولى بالاهتمامات الفرنسية بالمنطقة وسكانها، ضمن مخططات فرنسا للسيطرة عـــلى ســـورية، إثر تصفية تركة الدولة العثمانية، وكان ضمن الاهتمامات الفرنسية قيام المستشرق الفرنسي رينيه ديســـو (1868 ـ 1958) بكـــتابة مؤلفه «تاريخ النصيرية وديانتهم» الذي صدر عام 1900، وأرسلت فرنسا بعثات تبشـــيرية واستكشافيه إلى جبال العلويين، وكان من بينها بعثة الضابط ليون كاهون في عام 1878م، فقد وصل هذا الضابط من لبنان إلى اللاذقية ومن اللاذقية توجه إلى منطقة القـــرداحة، وذلـــك بالـــتعاون مع القنصلية الفرنسية في اللاذقية، ودوّن هذا الضابط بعض مشاهداته، وهي مهمة، لكنه تصرف في حديثه بشكل غير مسؤول حينما قال بأن أهـــل الجبل كانوا يريدون التخلص من الحكم العثماني،

ويرغبون باستبداله بحكم فرنسي، نعم هم رغبوا بالتخلص من التسلط والطغيان والفساد العثماني، والأخذ بأسباب الرقي لكنهم لم يرغبوا قط بأن يحكمهم الفرنسيون، وأكبر دليل على هذا أن شرارة المقاومة ضد الفرنسيين حينما دخلوا إلى سورية، انطلقت من جبال النصيرية، وهي مقاومة أو بالحري ثورة تحررية قومية وحدوية.

هناك الآن حاجة ماسة لجمع جميع الوثائق والمدونات، مهما كان نوعها، سواء أوافقت أهواءنا أو لم توافق، وإخراجها إلى النور، وأيضاً تدوين المرويات الشعبية، حتى يمكن كتابة تاريخ هذه المنطقة ضمن تاريخ بلاد الشام ككل، ولكم هو مفيد أن يقرر مجلس كل محافظة من محافظات جمهوريتنا صنع موسوعة تاريخية وحضارية لها، ثم تجمع المحصلات ليستخرج منها تاريخ علمي موثق لبلاد الشام، متذكرين وجود أربع جامعات رسمية في سورية: في كل واحدة منها قسم للتاريخ، فلو تولت جامعة دمشق التأريخ لدمشق والمناطق الجنوبية، وحمص للمنطقة الوسطى، وحلب للشمال والجزيرة،

واللاذقـــية للســـاحل والجبل، لأمكن ضمن خطة محددة زمنـــياً، إنجاز هذا المطلب الملح، ولا شك أن بلدنا يمتلك الإمكانات العلمية والمادية الكفيلة بنجاح الإنجاز.

نحـــن بأمس الحاجة إلى هذا، فقد آن الأوان الاعتماد عـــلى الذات، وإيقاف التبعية الفكرية، فأنا شخصياً آخذ بأســـباب المـــثاقفة، لكـــنني شديد الإيمان بهويتي الوطنية والقومية، ومعتز بذلك، وقديماً قالت العرب :

أهل مكة أدرى بشعابها.

دمشق

23/ 9/2004

يتكون جبل «العلويين» من سلسلة جبلية يبلغ متوسط ارتفاعها 900م، يفصلها جنوباً عن لبنان الوادي العريض للـــنهر الكبير (تيتروس، وهو الاسم القديم له) وعن جبل الأقرع في الشمال (كاسيوس قديماً) سيل المعاملتين. هذه الجبال تنحدر عمودياً نحو وادي العاصي من جهة الشرق وتتصـــل بساحل ضيّق يمتد بين منحدرات الوادي الغربية والبحر المتوسط.

لقد كانت المناطق الجبلية التي زارها السيّد «غيوم وي» والملازم «والبول» عديدة جداً و لم يحاول الأول ولا الثاني التطرق إلى عادات ومعتقدات شعوب هذه المنطقة، علماً أن أنثروبولوجـــيا العلويين ـــ هذا التجمع البشري الذي يتمـــيز مـــنذ النظرة الأولى عن كل التجمعات الأخرى المحيطة به، هذه الأنتروبولوجيا شيقة جداً.

إن صـــفة الحذر والجفول التي يتسم بها هذا الشعب، والغمـــوض الذي يحيط بمعتقداته الدينية، والثبات والحميّة

التي دافع وما يزال يدافع بهما عن قوميته العربية، ضدّ كل الغزاة الأجانب، والهيئة المتميزة لهؤلاء الشقر ذوي العيون الفاتحة والمختلفة بشدة عن هيئة الأتراك والمارونيين والأكراد الخ.. كل هذا دفعني إلى تجميع المعطيات الأنتروبولوجية بحيث يكون العلويون من بين الجماعات البشرية الأخرى التي أسعى لكشف أصولها والتعريف إيجابياً بخصائصها، الأنثروبولوجية. وقد ذكر بعض الرحالة أن من الصعب مخالطة هؤلاء القوم. فأقدم ذكر لهم جاء على لسان الرحّالة الإسلامي«ابن بطوطة»في القرن الرابع عشر حين أشار إلى أن العلويين في ذلك الزمن كانوا قد استولوا على اللاذقية.

كما أن «تيفيه» كان قد أشار في القرن السادس عشر إلى الأخطار التي كانت تحدق بالرحالة المتوجهين من طرابلس إلى اللاذقية عند مرورهم على الساحل الذي يصل بين المدينتين.

أما السيّد «والبول» فقد قال في معرض حديثه عن الرحلات التي قام بها لقبائل العلويين عام (1851): «عندما

انطلقت نحو الجبال، لم يكن هناك شخص واحد في تلك المدينة (أي اللاذقية) إلا وكان مقتنعاً بأنني ذاهب إلى موت محقق، ذلك أنه لم يغامر أي من سكان المدينة بالذهاب إلى مناطق العلويين فقد كانت تمثل بالنسبة إليهم (أرضاً مجهولة تماماً)»؟.

عند مروري للمرة الأولى باللاذقية ذهلت للبشاشة والمظهر الأبي المتكبر لبعض العلويين الذين تسنت لي رؤيتهم في الأسواق والمهم في الأمر إن كل ما قيل لي عنهم وما قرأته بخصوصهم كان بعيداً عن الحقيقة، فقد حاولوا في بيروت ثنيي عن الذهاب خوفاً على حياتي من أن أهدرها في جبالهم.

فأبو سليم! بكوفيته الملتفة حول رأسه بطريقة عسكرية، وبندقيتة ذات الطلقتين، ومشلحه الأبيض، بدا في هيئة محارب حقيقي وهو يمتطي فرساً جميلة رمادية. أما ابنه سليم فقد امتطى حصاناً لائقاً إلا أنه لم يكن يحمل بندقية، ولا يضع كوفية أو مشلحاً ولم ينتعل جزمةأيضاً، كان يرتدي سترة ذات لون ضائع بين الأحمر والأسود ويمسك

بمظلة بيضاء. وكانت تلحق بفرس أبو سليم الرمادية فلوتها المزينة بسلسلة يتدلى منها حجاب، وعبر عاصفة من الغبار ظهر لنا فارس يمتطي صهوة جواد كريم احتاز ركاماً من الحجارة وتوقف بمهارة. إنه «يوسف» كان يعلّق بحزامه خنجراً فارسياً، وبندقية ذات سبطانتين تظهر من وراء ظهره، وسيفاً يتدلى على جانبه أما الطبنجه فقد علقها في سرج حصانه. لم يكن هذا الفارس يلف كوفيته على الطريقة المسيحية أو العربية بل كان قد فتلها أولاً ومن ثم لفها لفتين محكمتين على طريقة قطاع الطرق ، وارتدى أيضاً السترة العلوية التي تصنع في حمص بمربعاتها الحمراء والبيضاء وهم يرتدونها فوق ثيابهم.

هيا بنا، غمغم يوسف من بين أسنانه، وانتزع محفوض نفسه من بين جماعته الذين يزيد عددهم على الثلاثين شاباً وامتطى حصانه المثير للضحك. كانت الشمس عالية في السماء، ولدهشتي الشديدة فقد أغلق الشاب سليم مظلته غير آبه بحماية بشرته الحنطية الموردة ورأسه الجميل من أشعة الشمس الحارقة !! ثم انطلق نحو مقدمة الرتل والبغال

تـــلحق به. اجتزنا اللاذقية بخيلاء وثقة، ومررنا بالمقبرة ثم بالـــتلة لنعود بعدها ونهبط إلى الدغل الذي كنا قد قمنا بجولة صيد فيه سابقاً عند مجيئنا من جبلة. لقد امتلأ الدغل الآن بسحابات من الذباب كانت تضايق خيولنا وتجعلها تتململ وترفس. تركنا الدغل وراءنا لتتخذ عربتنا الطريق المـــؤدي إلى الجسر ثم اتجهنا يميناً نحو مصب النهر الكبير لنتجاوزه هذه المرة بثقة فقد كنا نعرف طريقنا هذه المرة. ثم اتجهنا مباشرة إلى الجنوب الشرقي ميممين شطر الجبال.

كان الطريق يصعد بنا نحو سلسلة من التلال المتلاحقة. اجتزناالسلســـلة الأولى فالثانـــية فالثالثة الأكثر ارتفاعاً ثم هبطنا منخفضاً دائرياً رائع المنظر.. على يسارنا وعلى بعد كـــيلو مـــتر كانت ضيعة الصنوبر والتي لا يبعد عنها نهر الصـــنوبر ســـوى أمتار، ذلك النهر الذي يتهادى وسط جروف حادة الانزلاق لا يزيد عمقها عن أربعة أو خمسة أمتار، ثم توقفنا تحت شجرة تين انتصبت وسط حقل رائع الخضـــرة. وبعد لحظات ظهر لنا من الجهة الأخرى لنهر الصـــنوبر رجلان مفعمان بالصحة والجسارة، وقد لاحت

بنادقهما من وراء ظهريهما.. كانا يتسلقان الجرف بنشاط وحيوية لحراسة قطيع من الماعز حالك السواد وشديد الظرافة. وفجأة، ظهر أمامنا شابٌ فارع الطول، ومن بعده سيدتان. إحداهما عجوز والأخرى شابة متوسطة الجمال. إنهم فلاحون من قرية الصنوبر التي يمتلك فيها «أبو سليم» بيتاً وأراضيَ.. لقد أخُطِروا بحضورنا فجاؤونا بقربة ماء وإبريق من اللبن الرائب وخليط من اللبن والزبدة من أطيب ما ذقت وأشده إنعاشاً.

غادرنا «أبو سليم» إلى بستانه ممتطياً صهوة جواده ثم عاد حاملاً بطيخة عملاقة وكان قد طلب من أحد الفلاحين أن يجلب لنا سجادة نفترشها ففعل،كان محفوض قد جهّز لنا طعام الغداء التقليدي فيما كانت النسوة يسكبن لنا الشراب في «طاسات نحاسية» من مكان يبعد قليلاً ويرسلن ما يردن إرساله مع أول ريفي يمر بهن وكان هو بدوره يقدم لنا ما أرسلنه معه بتلقائية وبساطة شديدتين.

كانت المرأتان تتحدثان دون أن يبدو عليهما أي مظهر

من مظاهر الوجل أو التوجس، كانتا تتحدثان بتلقائية دون فضول متطفل، وتظهران الكثير من الحرية الحقيقية والسامية، وأنا لا أستطيع إطلاق هذه الصفة على النساء من المذاهب الأخرى، ولا حتى على المسيحيات في لبنان اللواتي كن يتوارين عن أنظاري، عدا بعض الحالات الاستثنائية النادرة.

بعد انتهائنا من طعام الغداء، امتطينا جيادنا وتوجهنا نحو إحدى القمم، فاجتزناها لنهبط بعدها إلى وادٍ دائري الشكل يمتد على يساره جبل تعلو قمته شجرة ضخمة عملاقة تنتصب بمفردها يستدل بها على قرية «رسلون» المكان هنا يأخذ بالارتفاع تدريجياً والأشجار متنوعة. الوزال يتداخل مع الريحان وتنتصب هنا وهناك أشجار الحور أو تتعانق أيكات السنديان الخضراء اللون ذات الجذوع الكثيرة العقد والأغصان الملتوية، وفي قمة كل مرتفع يطالعك مرج واسع معشوشب ذو رائحة تنفذ من خلال أجمات زهور العطاس والخليج..

كان كل مرج من تلك المروج يشكل مسطحاً تحيط

بــه الارتفاعــات الجبلــية. تركنا المرج وتسلقنا بمشقة مــنحدرات مرج آخر، خلت أنني ارتقيت أكمة، أبداً إنه مرج جديد تحيط به الجبال والتلال من جهة واحدة - فإذا اعتــبرنا أن المــرج يشكل دائرة فإن الجبال تحيطه بنصف دائــرة - كانــت النباتات تختفي في بعض الأحيان حين تعترضــنا عقبات ضخمة من الصخور الكلسية البيضاء الــرمادية. كــان بعض هذه العقبات يشكل تلالاً من الحبيــبات البيضــاء المــبرغلة وبعضها الآخر عبارة عن تكدسات شحفية ملساء، وبعد أن سرنا بعضاً من الوقت طالعنا عن يميننا جبل يمتد طويلاً ليشكل سوراً هائلاً تكلله حلــة خضــراء غامقة من الريحان والخليج والوزال. طفنا حوــله فوصلنا إلى مرج جديد، تحيط به الجبال من جهة واحدة على منوال تلك المروج.

عــلى يســار ذلك المرج وعلى بعد ثلاثين كيلو متراً تنتصــب قمة خضراء، إنها قمة «الأربعين» وهي إحدى الأمكــنة المقدسة لدى العلويين. أما عن يمينه فقد ظهرت مــنازل واطئة بطابق واحد، بنيت من الحجارة الصلدة،

الأســـطح مســـطحة محاطة على حوافها بحزام من النبات الشـــائك يدعـــى محلـــياً (بلّان) وهو نبات يكثر في هذه المـــناطق.. تلك هي قرية «غلليني»، وبعيداً.. من ورائنا تراءت بقعة زرقاء تتصاعد منها أبخرة وردية اللون وبريق معدني ذو صفرة لامعة، إنه البحر..

تجمع سكان «غلليني» على مدخل قريتهم يرحبون بنا ويتمنون لنا إقامة طيبة. كان هناك عدد من النساء يختلطن بالرجال. لفتت نظري إحداهن.. كانت شابة طويلة القامة تـــبدو على وجهها سيماء الصحة والعافية، شعرها كثيف أسود ضفرته في جديلتين، قدمت لي الماء القراح في الإناء الذي كان هو نفسه في كل مكان من تلك القرى المتناثرة ألا وهو: «طاسة النحاس».

بعـــد مســـير نصف ساعة وصلنا إلى مشارف ضيعة «قللوريـــه» بعد أن مررنا بقرية جميلة تدعى «المتركية».. وقرية «قللوريه» هذه قرية فقيرة، لم نرَ أحداً من ساكنيها يخـــرج للقائنا على عادة بقية القرى، عند مدخلها الذي يبعد حوالي خمسين متراً من بيوتها مُدَّ بساطان رثان جلس

علـى أحدهما شاب طويل القامة يرتدي «سترة» أوروبية مـن القمـاش الأبيض فوق سروال حريري.. وكان من السـهل معرفة أن هذا الشخص ذا الجبهة الضيقة والزي الغريب، لم يكن سوى تركي. كان شارباه معقوفين بحدة إلى الأعـلى، وكانـت هيئته المتغطرسة وتصرفاته الخرقاء تشير إلى أنه ضابط احتياط. كان هناك أيضاً بضعة جنود بـبذاتهم المتبايـنة والباهتة اللون والمهترئة، يتسكعون هنا وهناك تحت أشجار المرج، من بين أولئك الجنود كان نافخ الـبوق، ذا وجه مربع أو بعبارة أخرى مفلطح، وسحنة سمراء يشوبها اصفرار، شديد الوسامة، إنه رجل من نواحي «حفّـا» التركية أو بعبارة أدق أحد النازلين الأميين، لا شك في ذلك.

كان يبدو على أبناء «قللوريه» الانزعاج، وكان وجود الحامية التركية يُفسّر سبب ارتباكهم.

أخـذت مكـاني دون أن أعير الضابط الاحتياطي أي اهـتمام و لم يكلف هو نفسه عناء القيام عند اقترابي منه. لذلـك فقد جلست على البساط بجانبه وأدرت له ظهري

ثم انخرطـــت بالحديث مع أحد العلويين المسنين الوقورين ويدعـــى «الشـــيخ إبراهيم سعيد»، وهو شيخ دين جليل لطائفـــة العلويـــين الجنوبيين. كان هذا الشيخ المسن ذو الأربعة والثمانين عاماً يرتدي ثياباً قديمة العهد كانت فيما مضـــى بيضاء اللون.. إلا أن عينيه تشعان ذكاء وتضجان بالحـــياة، وكانت حركاته النشيطة واللائقة تتعارض مع مظهره البسيط. وقد علمت بعد مكوثي بين القوم الذين كـــانوا يتحدثون بكل شيء، بأن الشيخ «إبراهيم سعيد» هذا كان غنياً جداً، إلاّ أنه عقب مداهمة قامت بها قوات تركـــية لجمع أسلحة العلويين عام 1877، تعرض لاعتداء تركي عنيف استباح الأتراك خلاله قرية الشيخ وأحرقوها وفقد على أثر ذلك أربعة من أولاده الشباب.

بعـــد مضـــي ربع ساعة اقترح عليَّ الشيخ الجليل أن أرافقـــه.. جيء له بفرس هزيلة ذات سرج مهلهل يحوي رقعـــاً كثيرة ولجامها عبارة عن حبل. وفيما كنت أعتلي حصـــاني، أمســـك نـــافخ البوق التركي ركاب فرسي، انطلقت أنا والشيخ نُغذ السير ونتجاذب أطراف الحديث.

وشرع يحدّثني عن التعديات التي يرتكبها الموظفون الأتراك ورجـــال الحامـــية..وفجأة، لاحظت بأن المسدس المعلق بالسرج لم يكن في قرابه، لم يكن بإمكان أحد سرقته سوى الجـــنود الأتـــراك الذين كانوا هم وحدهم قد اقتربوا من الحصان. لم يتردد الشيخ في اتهامهم مستبعداً أن يقوم أحد رجاله بهذا العمل، ثم استأذن الشيخ الجليل مني ليعود إلى قريـــته بعد أن ترك معي اثنين من الفلاحين ليدلاّني على الطريق مؤكدا لي بأنه سيعثر على اللص .

ســـرنا ســـاعة كاملة بمحاذاة السفوح التي تطل على خـــندق يزيد عمقه على المئة متر تقريباً. كانت الغابات تكســـوه من قاعه وحتى القمة تقريباً. أما الطرف الآخر للخـــندق فقـــد اكتسى بالأعشاب والأشجار التي برزت بيـــنها صـــخور محدبة زلقة.. واصلنا السير صعوداً لنعود وهبط وادياً ثم نستقر في مرج يغطيه الريحان بكثافة وأمامنا امتدت غابة من السنديان.

انطلـــق أحـــد الدليلين العلويين مسرعاً باتجاه الغابة ثم خرج منها بعد قليل خمسة عشرَ شاباً طوال القامة والبنادق

معلقـــة على ظهورهم.. وقد ميّزت البنادق التركية، والتي تدعى «اليطاقان» كان بعضها يتدلى من الأحزمة التي تحيط بخصورهم. وكانت المغازل في أيديهم. كان هؤلاء الشبان يقومون بغزل الصوف بكل طمأنينة. وجاؤوا ليلقوا علي التحـــية والابتسامات تعلو وجوههم.. ماذا يفعلون هنا؟! كـــانوا يكمنون بين الأشجار! من كانوا يترقبون؟ أعتقد أهم يتربصون ببعض جنود الأتراك التائهين. على كل حال لم أستفسر منهم عن السبب لأنني بالتأكيد سوف أزعجهم بسؤالي، انضم أحد الدليلين اللذين يرافقاني إلى البقية وحل محله واحد من أولئك الشبّان.

عـــبرنا الغابة ثم اجتزنا قمتين وجوبة أخرى. وبعد أن تسلقنا منحدرات شديدة الوعورة تطل على وهدةٍ تملؤها الصخور الكلسية الضخمة وصلنا مكاناً انتصبت فيه على يسارنا وعلى بعد 10 كلم قمة خضراء حيث بدا بوضوح معـــبد صغير بجدرانه البيضاء الناصعة والتي كانت تسطع بالضياء تحت أشعة شمس الغروب الحمراء. أما الجوبة التي وصلنا إليها فنقدّر مساحتها بأربعة أو خمسة هكتارات..

وهـــناك في وســـطها رأيـــت خيمتي وقد نصبت والعلم الفرنســـي يرفـــرف فوقها. وعلى بعد عشرين خطوة من خيمتي تجمهر قرابة مئة من العلويين رجالاً ونساءً.

ترجلـــت عن حصاني وجلست على كرسي أمام هذا الحشد. وعندئذ خرج شاب ما بين السابعة عشرة والثامنة عشـــرة، مـــن عمره، بهي الطلعة، جسور، وتقدم نحوي فحيّاني وجلس على يميني. كان يرتدي جزمة حمراء ذات شـــرابات من الحرير الأزرق، وسروالاً من الكتان الأبيض (قمـــاش الكيليكوت) وسترة بكمين من القماش الأزرق تحـــيط به شرائط سوداء وعلى رأسه اللفة المعتادة والمميزة للعلويـــين ذات اللفتين المعقودة والمدلاّة. وعلى مقربةٍ مني بين الجمع المحتشد قبالتي تماماً، كان هناك عدد من النساء، وقـــد لفتـــت أنظاري إحداهن ببشرتها الوردية وبشعرها الأشـــقر المتوهج وعينيها الواسعتين الشديدتي الزرقة. وقد ذكـــرني هذا النموذج بالفتيات اللواتي نصادفهن في جبال الجـــوز، وخصوصاً في النواحي المحيطة بـــ«سان كلود». وبعد قليل جاءني فتى في السابعة أو الثامنة يرتدي صدرية

ضيقة قطنية حمراء اللون تزينها زهور بيضاء. سلّم عليّ ثم جلس إلى جانب جليسي.

شدني هذا الوافد الجديد الصغير بشكل خاص، لماذا؟ لا أدري. ربما بسبب شُقرة شعره وبياض بشرته والنمش المتناثر على وجهه وهي ظاهرة أراها للمرة الأولى على بشرة أحد الشرقيين منذ أن وطئت أرض الشرق، ولاحظت أن الجميع يكنون لهذا الصغير كل الاحترام والتقدير ولقد أعلمني «محفوض» بأن هذا الصغير هو ابن أخ تلك الجميلة الشقراء التي تقف بين حشد المستقبلين، والتي هي أخت أحد الجالسين بقربي «يُدعى مهنّا» وهو سيّد إحدى القرى القريبة.

و لم يمضِ وقت طويل حتى ظهر مدير الناحية ويدعى «إسماعيل العثمان» يرافقه رجلان وفي الحال سارع «محفوض» إلى صب القهوة.

شرع الوجهاء العلويون «إسماعيل العثمان» وقريباه «ومهنا» يشربون القهوة مراعاة لي لأن تناول ماء الحياة أو العرق لم يحن بعد. وحسب الأصول فقد بدأ الرجال

يشربون برفقتي وتجمع بقية الوجهاء على بعد بضعة أمتار وأخــذوا يشربون الخمر (العرق)، أما النساء فقد انسحبن للقيام بتجهيز الطعام.

بعد أقل من نصف ساعة، تجمع أكثر من عشرة رجال مــن الذيــن تسمح مرتبتهم الاجتماعية باحتساء الخمر المخصص لضيافتي. وقد استهلكوا ثماني لترات تقريباً. وبعد ذلــك تمّ إعــداد عشائي وأدخلوه إلى خيمتي.. انسحب الجمــيع وتركوني على راحتي. جلست في خيمتي وأمامي حســائي وعلى طاولتي قنديلان رائعان. ما هذا أيضاً؟ يا للمفاجأة! أرغفة خبز طازجة جلبها لي محفوض بدل تلك الأرغفــة العفنة التي تبقت لي من المؤن التي أحضرتها معي من بيروت.

وسألت محفوض... من أين أتيت بها؟ - إنها «مريم»، أخت «مهنّا»، التي أرسلتها لك سيدي، وبعد قليل، جيء لي بيخنة من الخضار المتنوعة ولحم الضأن.

- يا لبراعة طباخي «طنوس» هذا المساء!!

- كلا يا سيدي، ليس طنوس من طبخ لك هذا الطعام

بل زوجة الزعيم «إسماعيل»، هي التي طبخته.

مفاجأة أخرى كانت بانتظاري وقت تناول الحلويات. فقد دخل إلى خيمتي شاب مارد وألقى بالمسدس!!.. ذاك الـــذي ســـرق مني هذا الصباح. ألقاه على سرير الخيمة وخرج دون أن يتفوه بكلمة، وقد أعلمني «محفوض» فيما بعـــد بأن الشيخ «إبراهيم سعيد». هدَّد الضابط التركي بنشـــر أخباره وفضائحه إذا لم يقم بإعادة المسدس. وفعل التهديد فعله، إذ قام الضابط بإجراء تحقيقات مكثفة قادته إلى نـــافخ البوق الأميّ، فأخذ المسدس من محفظته وأعاده إلى الشـــيخ الجلـــيل متوعداً إياه بأنه إذا أشاع هذا الخبر ولطـــخ سمعة الدورية التركية أمامي فسيجعل قرية قللوريه تدفـــع الثمن غالياً. تلك كانت الحكاية التي حكاها المارد الـــذي جلـــب لي المســـدس. أما بخصوص هذه الحكاية وتداعياتها السياسية فسأتحدث عنها لاحقاً.

في هـــذه الأثناء، كان الليل قد أرخى سدوله، واجتمع وجهاء البلدة بكل حفاوة ووقار حول خيمتي على صوت الطلقات النارية التي أطلقوها ترحيباً بي.. لذلك كان من

واجبي حضور احتفالهم هذا. وهكذا فقد علّقت المصابيح الثلاثة إلى حبال خيمتي، ومُدّ بساط في الحقل، وأحضرت «ألفيّات» العرق.

حضر إسماعيل العثمان وأبناء عمومته و«مهنّا» وجلسوا إلى يميني ويساري، ثم جاء أبناء زوجة «إسماعيل العثمان» السبعة وشاركونا السهرة. كان أصغر هؤلاء الأولاد في السادسة عشرة من عمره.. لقد كانوا أبناء أحد زعماء العلوية، كان مشهوراً بنبل أخلاقه ومفاخر أعماله وقد سقط شهيداً في إحدى المعارك ضد الأتراك. فتزوج إسماعيل أرملة هذا الزعيم. وقد جرت العادة عند العلويين، بأنه إذا تزوج أحد وجهائهم امرأة تفوقه مترلة توجب عليه أن يكني نفسه «بالعثمان».. وعندما أراد أن يقدمهم لي اقترب مني بكل تواضع وقال:

– أنا من يكون ابناً لهؤلاء النبلاء وهم يكونون أخوة لي.

ثم جاء أخو «مهنّا» الصبي ذو الصدرية الحمراء والذي كان أرفعهم مترلة. لقد كان ابناً لأب آخر غير والد «مهنّا» والذي هو ثمرة زواج ثانٍ لوالدته. كان هذا

الاهـــتمام الذي يبديه العلويون بكل ما يرتبط بالسلالة، مهما كان سن الشخص، أو جنسه، يؤثر بي تأثيراً خاصاً. دار الحديث حول السياسة بيني وبين الوجهاء.. ومع بدء شرب طاسة العرق الثامنة، انحلت الألسن وازداد الحديث حمـــية وصراحة.. وعلى بعد 50 خطوة، كانت قهقهات الوجهاء وبقية الرجال والنساء تختلط بالدبكات حول النار المستعرة في الحقل. كان الجميع في ذهاب وإياب من وإلى خيمتي دون الالتفات إلى ما كنا فيه من إعادة رسم حدود لخرائط آسيا وأوروبا. وقد جاء «أبو سليم» الرزين وابنه الغريب الأطوار لحضور مجلسنا إلا أنهما امتنعا عن إمتاعنا بآرائهما السياسية. كان اثنان أو ثلاثة من أفراد هذا الحشد الكريم يسكبون لنا العرق، ومن بينهم شاب جسور موفور الصحة والعافية، قامته الفارعة تزيد عن المتر وثمان وثمانين ســـم أرســـله لي صديقي «كنجو».. كانت الضحكات المجـــلجلة لهـــذا الشعب الرقيق من رجال ونساء على حدٍ ســـواء تذكّرني من وقت لآخر بإحدى طرائف «يوسف فاضل» التي كانت لا تنضب. أما «أحمد» الذي كان قد

صدّع رأسي من بيروت حتى هذا المكان الذي أنا فيه الآن وهو يؤكد لي موهبته في الغناء فقد احتفظ بزعيقه لصفوة القوم!..

لقد بدا لي بأن العلويين يعيشون في وادٍ والعالم كله في وادٍ آخـــر، أما الحروب القريبة العهد فتبدو لهم كحرفٍ ميـــت،كانوا بارعين في الحديث عن كوارثنا عام 1870. هل كان هذا مراعاة لي؟ فالمراعاة تبدو لي غريبة هنا. أكثر مـــن واحد من أولئك الرجال الأقوياء شارك بالحملات ومنهم هذا الذي حارب في «شيبكا» و«إيلينا» وآخر في «زيفين». كل هؤلاء الجنود القدامى كانوا رجالاً بسطاء جـــندوا عنوة وأجبروا على الانضمام إلى الجيش التركي، و لم يســـتثن أي زعـــيم علـــوي مـــن الخدمة في الجيش الانكشاري.

أحـــد القرويين الذي كان يسكب لنا الشراب اقترب بفضول متميز.. بدت حركاته وتصرفاته حضرية صارحته بذلك.. فأجابني:

- كنت جندياً وأعرف الأصول. فأنت ضابط رديف

وعليَّ أن أقدم لك فروض الاحترام .

سألته:

- هل نلت رتبة ما؟ وهنا أخرج القروي من تحت قميصه البالي شرائط ورتباً مدعوكة بالإضافة إلى نيشان عثماني.

- كنت شاويشاً (رقيباً) وقد قدّم لي الأتراك نيشان..

سألته:

- أين حصلت عليه؟ أجابني:

- في «إيليـنا».. لقد استوليت هناك على مدفع من المسكوفيين وعندما رجعت كتيبتنا كان علينا أن نسير مدة شهرين للوصول إلى «كوزان داغ» ونحارب في الوقت نفسه ضد التركمان، وبما أننا أبحرنا من «مرسين» فقد رأيت أنني قريب من الديار وهكذا اتخذت قراري بالفرار..

- لكنك لو بقيت لأصبحت ضابطاً، بيك أو باشا.

- بيك أو باشا؟ و«جعفر الطيار» أنا أفضّل أن ألبس قميصاً ممزقاً وأظل جائعاً في بلادي على أن أكون بيك

عند الأتراك.

كل العلويين يوافقون رأيه ويؤكدونه.. وقد قال لي الزعيم «إسماعيل»:

- لو أن الأتراك يتركوننا وشأننا فسنقدم للسلطان عشرة أو خمسة عشر ألفاً من رجالنا ليشاركوه في حروبه ولكن بشرط أن يتركوا أمر إدارتنا لنا لنعرف بالضبط ما علينا دفعه من ضرائب وأن يغادر جنودهم الحاميات الموزعة في أرضنا.

- ولكن أيها الزعيم، الأمر عندنا مختلف، فالمدن الفرنسية تعتبر نفسها سعيدة لوجود الحاميات والجنود فيها لأنهم يستهلكون كثيراً من المواد وبالتالي فهم يدفعون المال بسخاء.

عند هذه العبارة، انفجر أصحابي العلويون بالضحك وقالوا:

- نحن ندرك تماماً براعة الفرنسيين، ونعلم بأن كل ما في فرنسا مثير للدهشة والعجب إلى درجة أن أفقر البيوت الفرنسية وأقلها تكلفة في باريس مبنية من الرخام ونعلم

أيضاً بأن هناك قصوراً تشع باللهب من بعض معالمها. لذلك لا يجوز منك أن تسخر منّا حتى ولو كنا فقراء أو قرويين نسكن هذه الجبال البعيدة عن كل معالم الحضارة الحديثة، قرى تطالب بالجنود!! ها.. ها.. إنه لأمر صعب أن نصدق بأن هناك جنوداً ليس فقط لا يسلبون وينهبون، بل يجعلونك تكسب المال.. ها.. ها.. وجعفر الطيار إنك لتسخر منّا بشدة!

حاولت تهدئة هذه الجموع الطيبة، إلا أنني كنت أسمع الجملة التي يرددها الجميع:

-متى سيأتي الفرنسيون؟ ليأت الفرنسيون كرمى لله.. ما من ضرورة لإرسال جنود، فليقدموا لنا الإدارة والمدارس، إذا أرادت فرنسا حمايتنا فسنتكفل نحن بطرد الحكومة التركية من طرابلس حتى اللاذقية.

لماذا لا تريدنا فرنسا؟!.

من خلال هذه المشاعر من الحب الذي يُكنونهُ لفرنسا، لاحظت فجأة أن بعضهم لم يشارك في إبداء آرائهم.. كان هناك وجوه غائبة عن ساحة المناقشة.. جُلت

بأنظاري.. «مهنا» وحوالي خمسة عشر شاباً قد اختفوا.. فتساءلت:

- أيـــن «مهنا» و«الفراري» والرجل الذي أرسله لي كنجو؟

ضحك أحد أقرباء «إسماعيل العثمان» ضحكة خافتة، أمـــا أبـــو ســـليم الرزين فقد أدار رأسه. ابتلع «إسماعيل العثمان» العرق من طاسة النحاس وقد بدا عليه الكدر.

وبمـــا أن الوقت كان قد تأخر كثيراً وبلغ التعب مني مبلغه فقد آثرت الذهاب إلى النوم.. وهنا سألت محفوض:

- قـــل لي يـــا محفوض، لماذا بدا عليهم الكدر عندما سألتهم أين ذهب «مهنا»؟

- هاهي مسدساتك يا سيدي.. أجابني محفوض وكان أقربهم إلى قلبي.. وهاهي بندقيتك هل حشوتها يا سيدي؟ لقد ذهب «مهنا» إلى الغزو.

- حسن جداً..

وبعـــد أن أســـدل غطاء باب خيمتي ووضع أسلحتي بمتناولي قلت لنفسي:

- «مســـكين صالح» لو كان يعرف العربية؟! إلا أن المسكين «صالح» لم يكن يعرف العربية، بل كان ينام قرير العين قرب الخيول غير آبه بأنهم ذهبوا للغزو دونه، كم هو مسكين.. غداً سيكون النهارُ شاقاً.. فقد كان عليّ البدء بـــتحديد المـــنطقة الـــتي ســـأقوم فـــيها بعملية المسح الطوبوغـــرافي.. وكان علي أن أطوف وأتجول في الأودية التي تحيط بهضبة القرداحة.

كـــان من المستحيل الوصول إليها على ظهر الحصان، فالمنحدرات القاسية لا يمكن اجتيازها إلا سيراً على الأقدام وذلـــك بسبب كثرة الصخور الضخمة الملساء إلى درجة تـــثير الدهشـــة والعجب.. وأثناء تجوالي في أعماق أحد الأودية وعلى جنبات الصخور الرمادية عثرت على غرف محفورة في الصخر يدعونها هنا «نواغيص» وهي في الحقيقة مدافـــن لسكان ما قبل تاريخ هذه المنطقة.. كان المدخل ضيقاً، لذلك فقد توجب عليّ الانزلاق أولاً عبر ممر يبلغ المـــترين طـــولاً امتلأ بالأعشاب اليابسة التي سدّت عليّ طـــريقي وربمـــا كانـــت هذه الأعشاب مرتعاً للأفاعي

والزواحف والحشرات..

بعــد الممر كان هناك باب يبدو أنه كان يغلق سابقاً بــبلاطة ضخمة أو بصخرة كبيرة. كان عرض هذا الباب 60 ســم وارتفاعه 80 سم. تعلوه فتحة كاملة العقد يتم الدخــول عــبرها إلى مغارة طولها 5.5 م وعرضها 2 م، وارتفاعها 1م. هاهنا كان عِرق بشري مندثر يدفن موتاه دون أية كتابة جدارية ودون أي أثر لأي تزيين. بضع بقايا فقــط لشظايا من عظام هؤلاء الأموات اختلطت بالتراب العضــوي الناتج عن تفسخ الجثث وتراكم الغبار وبضع قطــع لإنــاء فخــاري يشوبه الاحمرار والخشونة ورداءة الصنع..

تبلغ سماكة هذا الإناء 4 سم أما انحناء القطع الفخارية فيشــير إلى أن محيط عنق الجرّة الفخارية كان يبلغ حوالي 50 ســم.. وعند تفحصي لتلك القطع الفخارية لاحظت بأنها تحوي قطعاً لامعة من الصوان والكبريت.. لقد نُهبت كــل هــذه القبور عدا قبراً واحداً لا يزال مدخله ممتلئاً بالأتربة.. أي فرح سيغمرني لو استطعت فتحه والعثور فيه

عـــلى كـــل مـــا يحـــيط اللثام عن أصل هؤلاء السكان الغامضين!..

قـــررت أن أرجـــئ هذا الأمر إلى الغد لأن الوقت قد تأخر اليوم. وعليّ الصعود مجدداً إلى الهضبة، عند دخولي إلى القبر الأخير كدت أنقلب على ظهري عندما فوجئت بهـــرّ بري ضخم كما فوجئ هو بي وهذا ما بدا عليه عند اقتحامي داره فقد شبّ في وجهي وفرّ ماراً من بين ساقيّ.

إنـــه يزيد الهر الأوروبي البري ضخامة.. كنت أرغب بشده لو أستطيع الإمساك به، ولكن وقبل أن أتدارك أمر بندقيتي كان قد اختفى بين الأعشاب الجافة..

في تلـــك اللـــيلة دعيت لحضور «الدبكة» عند أهالي القرداحة.. لقد أشعلوا ناراً هائلة في الحقل على بعد 50م مـــن خـــيمتي وفرشوا على الأرض بساطاً من اللباد كما خصّـــني القـــوم بوسادتين. جاء الأمير «إسماعيل» ليأخذ مكانـــه بجانبي، أما ذاك الفراري الذي لازمني طوال النهار كظـــلي فقـــد كان على أهبة الاستعداد لتلبية أدنى طلب أبديـــه.. فما إن أمسك بسيجارة حتى يسارع لإشعالها لي

ومـــا إن أبـــدي رفضي لطاسة العرق الخشبية حتى يهرع بجلـــب طاسة النحاس الممتلئة بالماء المنعش.. لم يكن ذلك الشاب الجسور يغفل عني لحظة وكأني به يقول:

ـــ «انظر، إني أفهمك، إنني إنسان متحضر مثلك، أنا أيضاً سافرت وتجولت ورأيت بلداناً غير جبالنا هذه»..

كـــان يـــأتي لمساعدتي في كل لحظة، ويضيف بعض التعليقات على الشروحات التي عليَّ تقديمها عن السكك الحديديـــة وعن السيارات. (أحب أن أشير هنا إلى أنه ما مـــن علـــوي رأى في بلاده عربة إلا بضع عربات ، لنقل ذخيرة المدفعية).

كـــان هناك تساؤل يلوح على وجوه هؤلاء الجبيليين الشجعان ويشغل بالهم:

«مـــتى ســـيأتي الفرنسيون »كانوا يعتقدون بقوة أنهم ســـينتفعون بقدوم الفرنسيين وهم مقتنعون بهذا الرأي.. وهل يقوم الفرنسيون بشق سكك الحديد؟ .

كـــان هـــؤلاء الجبليون الشجعان يظهرون الكثير من الاندفاع للعمل والكثير من سداد الرأي.. الجميع يعترفون

بأن غالبيتهم يعتاشون من قطع الطريق بنصب الكمائن في أمـــاكن معزولة وبعيدة.. إلا أنهم في الوقت نفسه يصرون على أن السبب في ذلك يعود إلى الأتراك الذين يعذبونهم ويضطهدونهم ويسرقونهم. إنهم لا يزرعون إلا ما يلزمهم لســـدّ حاجـــاتهم الاســـتهلاكية ومـــاذا يفعلون بفائض منـــتوجاتهم؟ هل يبيعونها؟ في اللاذقية؟ لا شك أن الأتراك سيسرقونها. هذا إذا لم يسجنوهم أو يقتلوهم.. ومن جهة أخرى فإن الأتراك لا يشترون أبداً، وهم لا يستهلكون من الطعـــام إلا القلـــيل.. أما نحن فعلى العكس، قال الأمير «إسماعـــيل»، نحـــن شـــعب يحب الطعام الجيد، واللباس الجـــيد.. لقد كنت غنياً وقد أحضرت من اللاذقية بنائين كي يبنوا لي بيتاً من طابقين كالذي يمتلكه سكان المدينة، إلا أن الأتراك لم يمهلوني لأتنعم به.. فأحرقوه.. وقد تلقت الحامـــية التركية العام الماضي تعزيزات من الجنود تقارب 1200 رجـــل احتشـــدوا جميعاً بالقرب من القرداحة.. وهكـــذا دبّ الذعـــر في الأهالي وفروا إلى الآكام الجبلية تـــاركين وراءهـــم ثـــلاث قرى.. وعند وصول الأتراك

ورؤيـــتها فارغـــة من أهاليها قاموا بحرق القرى الثلاث وأعدمـــوا بعضاً من الرجال الذين حملوا السلاح في حين بادر زعيم المهالبة هو ورجاله إلى تقبيل يد الأتراك لأن هذا الخـــائن كان يريد الثأر من والد «مهنا» وقد عرض ألف مجـــيدية على قائد القوات التركية «حسين باشا» مقابل مـــوت عـــدوه والذي شاء حظه العاثر أن يقع بين يدي العســـاكر.. وبســـبب الخيانة أيضاً، فقد استطاع المهالبة ســـجن صـــديقي «كـــنجو» زعيم ناحية بيت الشلف (المزيـــرعة) وقـــد قطع الزعيم التركي رأس والد «مهنا» وطالـــب بالمال الذي عرضه زعيم المهالبة «حسّان ناصر» إلا أن الأخـــير رفض الوفاء بوعده فما كان من «حسين باشا» إلا أنه أمر بضربه وأباح قريته للسلب مشيعاً في كل مكـــان خيانته المنكرة والخسيسة.. أما صديقي «كنجو» فقد أرسل إلى اللاذقية تحت الحراسة المشددة والأصفاد في يديه..

وعلى طريق ضيق، وعر، بالقرب من «جسر الشحادة» وهو جسر عتيق من العهد الروماني على الأرجح، باغت

اللـــيل الجنود الأتراك، فعالج كنجو أصفاده حتى كسرها جاعلاً من حطامها سلاحاً استطاع به الإطاحة بستة جنود ثم قفـــز إلى الوادي ونجح في الهرب، وبعد يومين شنّ مع بعض رفاقه هجوماً شرساً على عدد كبير جداً من الرجال الذين جاؤوا للإمساك به في «المزيرعة» فهزمهم شر هزيمة وطارد فلولهم حتى السهل، ثم توجه إلى ثكنة محصنة كان قـــد بناها الأتراك في مكانٍ عالٍ مشرفٍ على «المزيرعة» بقصد السيطرة على البلد، فأحرقها.

وهكـــذا فقد كان على طابور القرداحة الذي «أنهكه كنجو» وهزمه العودة إلى اللاذقية. أما مؤخرة الطابور فقد تلقـــت عند مرورها في «القرداحة» نفسها هجوماً شرساً فقدت على أثره الكثيرين من بينهم عميد بقيت جثته لدى العلويين.. وهذا دليل على أن الأتراك كانوا يسارعون في الهروب أمام بسالة هؤلاء الرجال.

وهنا سألت الأمير «إسماعيل»:

- وماذا فعلتم بالجثة؟

- مُرّغـــت بالـــتراب أمـــام أعين السجناء الأتراك ثم

أحرقت هي وباقي جثث الأتراك الذين سقطوا في المعركة.

وبينما نحن نتحدث عن كل هذه الأمور كانت الدبكة علــى أشدها وقد أمسك أولاد زوجة «الأمير إسماعيل» السبعة بأيدي بعضهم بعضاً وهم يزهون بأسلحتهم وثيابهم الجميلة. كان كل واحد منهم يشبك يده اليمنى بيد رفيقه اليسرى ويلوحون بمنديل بحركات متناغمة ويرتجل أحدهم أغنــية إيقاعية فيردد الراقصون اللحن جماعياً وهم يقفزون عــلى القــدم اليمنى ثم اليسرى بتناوب جماعي تام، ومن وقــت لآخر كان رئيس الجوقة يثير حماس رفاقه صارخاً: هـــي.. هـــو.. فـإذا بالجميع يقفزون قفزة عالية واحدة ليضربوا بثبات الأرض بكعوب أحذيتهم التي ثبتت عليها قطعــة معدنــية ذات ثلاثة رؤوس. حمي وطيس الدبكة، وهاهو «مهنا» يتغلغل بين صفوف الدبيكة.. وهاهو أيضاً الأمــير «إسماعــيل» الذي لم يعد يستطيع المقاومة يأخذ مكانــه من جهة اليمين لصف الدبيكة.. ثم مالبثت حلقة الدبكــة أن أحاطــت بالنار و أخذت العبارات السياسية تتســلل في طريقها إلى الأغنيات،ومن بين الدّبيكة، كان

أصــغر أولاد زوجــة «الأمير إسماعيل» السبعة، الشاب «حــامد» وهو في السابعة عشرة من عمره كان يرتدي بذلــة حديثة. مازحته بمناداته تركي، وفي الحال انطلق إلى القرية وعاد وقد ارتدى ثياب العلويين بالكامل إلا أن زهو الشــباب فرض نفسه بأن زيّن لباسه الأصيل بربطة عنق شفافة مطرزة بخيوط ذهبية.

عــلى كل حال، كان له الحق بارتداء زيه الألباني هذا لأنــه كــان من جملة غنائمه التي استولى عليها من أحد الضــباط الذيــن صرعهم في القرداحة نفسها بطعنة من خــنجره الســنة الماضية.. ورغم هذا كله فهو لا يتباهى بصــنيعه هذا كما هي حال العلويين عامة.. فقد لاحظت عــندهم خاصــة وعند الشرقيين عموماً أنهم لا يحبذون الــتفاخر بمآثــرهم.. وإذا حدث وتكلموا فبتواضع جم وحرصٍ تام على عدم المبالغة.

أمضينا يومين متتاليين في أعمال طوبوغرافية في المناطق المحــيطة بالقرداحة.. وفي الأماسي كنا ننشغل تماماً بأخذ قياســات أجســاد الرجال والتي انسجم معها أصدقائي

العلويــون بشكل يثير الدهشة وأشير هنا إلى أنني تأثرت وأعجبت كثيراً بذكائهم. فبعد أن قمنا للمرة الأولى بأخذ القياسات تحت الأنظار الفضولية لجمهور المشاهدين، فلقد تضــاعفت القياسات وكثرت بسرعة لأن أجزاء الجسد نفســها التي تم قياسها كانت تساعدني فبينما كنت مثلاً أتلمس المدور الكبير أو النتوء العظمي لأسفل عظم الكتف كــان مشــاهدي الصبور يقول لي ضاحكاً: ليس هنا.. هناك.

ويمسك بسبابتي ليدلني على المفصل المراد..

وهكذا حتى وصل الأمر في النهاية إلى المارد الذي يبلغ طوــله متراً وثمانية وتسعين سم ويدعى «حسان الأغيس» والــذي أرسله لي «كنجو» ليقدم لي العون بترتيب المواد الــتي سأتناولها بالقياسات والاهتمام بأدواتي وبياناتي تحت الأنظار الدهشة للموجودين.

كان «حسان الأغيس» يتمتع بكبرياء رفيعة وبثقة عالية بنفســه وبقدرتــه البدنية. فقد استطاع إيصال إبرة قياس القوة عن طريق الضغط إلى الدرجة 90..لقد شعر بالزهو

وهـــو يرى الرجال الذين يدعون القوة الجسدية يتهالكون للوصول إلى الدرجة 55 أو 60 على الأكثر..

في صـــباح 22 تشـــرين الأول (أكتوبر) وبينما كنت أستمتع بنوم هادئ، جاءني «محفوض» ودخل خيمتي.. لم تكن الساعة قد وصلت السادسة، انتصب محفوض أمامي كالطود، والوجل يبدو على قسماته..

- ماذا هناك يا محفوض؟

- سيدي.. هناك.. هناك.. الأتراك؟؟

- كيف الأتراك؟ أي أتراك؟ ماذا تعني ؟..

- يوجـــد فـــوج كبير مع بعض الخيالة وقطعتين من ســـلاح المدفعـــية موجهـــة إلى خيمتك.. قائد الوحدة يطلبك.. معهم أمر بالقبض علينا..

إنـــه لأمـــر مضحك.. جيش وسلاح في وجهي أنا.. ولوحـــدي.. منعـــتني غـــرابة الحالة من التأثر بها.. قلت لمحفوض:

- اذهب وابحث عن المقدم التركي وقل له بأن ينتظر، سأســـتقبله خلال ساعة أو ساعتين.. ليجلبوا لي قهوتي.

ذعر محفوض :

- سيدي.. يوجد مدفعان..

- حسن.. فلتنتظر المدافع .. إليّ بالقهوة..

خــرج محفــوض مذهولاً.. بالغت بالاعتناء بمظهري وشــربت قهوتي على مهلٍ.. وفجأة سمعت خربشة على جدار الخيمة المقابل للباب المطل على الأتراك.. صرخت: من هناك؟!

- كنجو.. وبسرعة رفعت طرف جدار خيمتي فانزلق كنجو إلى الداخل.. وبدأ بالوعيد:

أتعلم بأن هؤلاء الأتراك القذرين هم هنا؟ والله وقعوا.. نعم.. وبجعفر الطيارّ لدي (400) رجل يكمنون في سهل الــوادي، في عمقه.. نعم وبالله العظيم عند أول طلقة.. وبجعفــر الطــيار ســأقلبهم على ظهورهم.. هيه.. والله العظيم..

- آمل أن لا نصل إلى هذه الحالة..

- نعــم والله العظــيم، إذا أتــى رجالي إلى هنا كن مطمئناً.. شباب القرداحة جاهزون..

- حسن.. ولكن حافظ على هدوئك..

بعد نصف ساعة أرسلت محفوض ليقول للمقدم التركي بأنه يستطيع الدخول إلى خيمتي..

جلست على كرسي سهل الطيٍّ بجانب خيمتي.. خنجري ومسدسي داخل نطاقي.. وورائي انتصب صالح بوجه خال من التعابير وقد شبك يديه عند أسفل بطنه.. وعلى بعد مئتي متر اجتمع حوالي ثلاثمئة علوي بكامل سلاحهم والتفوا حول الأولاد السبعة لزوجة الأمير إسماعيل وحول «مهنا».. وقبالتي انتصبت الخيام والشعارات .

أما أبو سليم والمرافق فقد اختفيا وذابا كفص ملح، وكان يوسف فاضل موجوداً بين الجموع، كنت أرى دراعته الحمراء تتموج بين الحشود. وبجانبه استطعت التعرف على الجميلة «مريم» أخت «مهنا» وبواسطة منظاري ميزت بسهولة المسدس الذي تحمله في نطاقها.

كان الموقف من أشد المواقف المثيرة للقلق والإزعاج، فالقتال كان حتماً عملاً متهوراً. كيف كان العلويون

سيتصـــرفون؟! إنهـــم يبدون الكثير من التصميم، ولكن أيظلون على موقفهم ؟

إنني أعتذر للقارئ عن أفكاري السيئة. وكي لا أطيل الكلام اقترب الحاكم التركي مني يرافقه عسكريان ومدني واحـــد.. قســـمات وجه أحد العسكريين أراحتني على الفور.

وإلـــيكم وصفاً للحاكم التركي «سعيد آغا».. قامته متوسطة، مكتنز، عريض المنكبين، كروي الصدر.. عيناه زرقـــاوان، أنفـــه مستقيم وعريض، شعره أشقر أصهب، شارباه قاسيان كثان، سحنته تميل إلى الاحمرار، نظرته ثاقبة صريحة ولكن مع بعض الرقة.. كان يتبعه ملازم بطول ستة أقـــدام، وقد حشر نفسه داخل طقمه العسكري المزرر، مسدســـه داخل حزامه والسيف يتدلى على جانبه، تحيط برأســـه كوفـــية أحسن صنعاً بوضعها على رأسه لتغطي سحنته المنفرة.. عيناه جاحظتان شهوانيتان أما شارباه فقد كانـــا شاربَيْ النموذج الميلودرامي لإنسان غادر. وبجانبه يقـــف رجل صغير القامة، قذر، يرتدي الريدينغوت المدني

وقـــد فكت أزراره، ليظهر تحتها قميصٌ من الكتان دون قــبّة، وبــنطال رث، يــتدلى فوق حذاء مهترئ.. لحيته موشحة بالشيب ونظراته خبيثة.. كان هذا هو المدير الذي يسعى للتدخل بشؤون علويّ القرداحة. أما المقدم «سعيد آغا» فهو رجل شجاع، أعزل، بنطاله داخل جزمته، سترة بذلـــته ملقاة على أكتافه، طربوشه الأحمر منحرف جانباً دون شـــرابة، يداه في جيبه، قميصه متهدل وربطة عنقه محلولـــة، كـــان يســـير مع هذا الفصيل التركي «الأمير إسماعيل» وقد بدا عليه الحنق..

اتجـــه المقدم صوبي بحرارة ومد يده للسلام.. تفحصنا بعضنا هنيهة، وأستطيع الجزم هنا بأن الانسجام ساد بيننا عـــلى الفور إذ أنني جعلت محاربي يجلس على الأرض عن يســـاري، وبجانـــبه جلس المدير والعسكري الآخر.. أما «الأمير إسماعيل» فقد جلس قبالتي..

جلب محفوض القهوة، ثم ساد الصمت. هل ستحدث معركة أم لا؟؟

وقـــف المديـــر القـــذر الهيئة وارتجل خطاباً دعاني فيه

بـــــ«إكســـلانس» وطلـــب أوراقي!! ولسوء حظ هذا (الفصـــيح) قـــام «ســـعيد آغا» بمقاطعته سريعاً وأمره بـــالجلوس، وعـــندها بدأ المدير مناقشة طويلة مع الأمير إسماعـــيل حول جوادين ربما يكونان قد سرقا وعن رجل مفقود منذ يومين ويرجح أنه قتل بالقرب من «القللورية» وكان المتهمون من القرداحة..

ارتفع الصراخ من هنا وهناك، واشتد حتى اللحظة التي انخـــرط فيها «سعيد آغا» بالحديث وانتزع بعدها التقرير من يدي المدير وتوجه بالسؤال بهدوء إلى «الأمير إسماعيل» واستفسر عن صحة ما جاء في التقرير وفيما إذا كان يريد أن يضع ختمه عليه.. وبعد محادثة خافتة قام الأمير إسماعيل بوضـــع إشارة على هامش التقرير ثم ختمه بختمه، كنت كمن يتفرج على موضوع لا يعنيه وأنا أرى تحول مجريات الأحـــداث.. وقفـــت وتوجهـــت بالحديـــث إلى المدير والعسكري الآخر وقلت لهما:

- سأترك لكما المجال لتقوما بمهماتكما.

ثم توجهت بهدوء بالحديث إلى «سعيد آغا»:

- يسعدني أن تشرفني على مائدة الغداء. وسبقت المقدم الذي هرع ورائي متجها إلى خيمتي. وهناك شرح لي كيف أنه جاء ليقبض علي إلا أنه وبسبب قلة عتاده وغموض الأوامر من جهة أخرى، فهو سيذهب من هنا دون تنفيذ ما كلف به، وسيبرر عمله أمام مرؤوسيه بأن بلاغات مدير «القرداحة» والضابط الذي كان يحكم «القللورية»(1) والتي كانت تتهمني بأنني أوقد نار العصيان والفتنة بين العلويين هي بلاغات كاذبة.

أعتقد بأن وجود رجال «كنجو» كان من الأمور المقبولة لدى (سعيد آغا) لسبب ما أجهله. فما إن أسكب له كأساً من الخمر حتى يسارع ويسكب الزجاجة كلها.. وهو لا يستطيع تناول الغداء معي، لأن عليه مراقبة جنوده كي يمنع عراكاً قد يحصل بينهم وبين العلويين.

---

[1] إليكم ترجمة لواحدة من تلك الروائع الأدبية حيث احتفظ بنسخة اصلية منها: «إن الفرنسي الذي كان يجوب اللاذقية قد وضع تحت الحراسة والمراقبة طبقاً للأوامر. علمت بأنه يطوف الجبال ويرسم المخططات، وهو موجود الآن في القرداحة، حيث توافد شيوخ المنطقة لزيارته.. انتظر أوامركم. فيما بعد اتهمت من قبل الحاكمين في اللاذقية بأنني أقوم بوشم العلويين لتكون هنالك إشارة يتعرفون من خلالها على بعضهم وذلك من أجل التحضير للثورة القادمة..»

إلا أنــه دعــاني إلى بيته في الحامية في قرية «المهالبة» لتمضــية يــوم أو يومين.. أصبحنا سريعاً صديقين . أما المفاجأة الجديدة فهي المعرفة القديمة التي تجمع «محفوض» بــالمقدم! أخــذا يتحدثان عن معارفهما الكثر ويتبادلان اللكمــات على الأكتاف وهما يتضاحكان، وبالمناسبة فإن مسدســي الذي سرق مني في «القللورية» قد يكون هو الســبب في البلاغ الذي كتبه الضابط وهنا غمز «سعيد آغــا» بطــرف عينه، ووعدني وهو يشمّر عن ساعدين مفــتولي العضلات بأن ضابط عون القللورية سيتلقى من يده ضربة ما تلقاها أبداً أي ضابط احتياطي تركي من يد ضــابط جبهة دمشقي، ذلك أن سعيد من دمشق ويعتبر الدمشقيون كالباريسيين بالنسبة لسورية.. وقد وفى «سعيد آغا» بوعده إذ عندما غادرت اللاذقية رأيت ذلك الضابط (الجمــيل)! وقد انتفخت عيناه وفكه مرضوض وترقوته مخلوعة.

كانت الزجاجة الثالثة كافية لحل لسان صديقي الجديد، فقــد صــرّح لي بأن كل الموظفين الأتراك هم غشاشون ونشالون.

- ولكنك أنت أيضاً موظف تركي!

- وأنا أيضاً غشاش. أقبض 15 قرشاً كمعاش كل شهر ولـــدي سبعة أشخاص أعيلهم. ماذا تريدني أن أفعل؟ لو كان لدينا إدارة منظمة كما هي الحال في فرنسا!! لم يكن ينقصني إلا هذا! ثم عاود السؤال:

- كـــم يقبض العقيد في الشرطة عندكم في فرنسا؟ ثم أضاف دون انتظار الرد:

- هـــل تعرف بأنني الحاكم المطلق للعلويين. سيقولون لـــك ذلك، لقد تزوجت بواحدة منهم.. إنني العسكري الوحـــيد الذي يهابونه(2)، أعرف عاداتهم، الحمد لله إنني لست تركياً!

- وكيف لا تكون تركياً؟!

- فليحفظني الله.. إنني من دمشق.. أنا عربي (أشير هنا بأن سعيد هو التركي النموذجي من الناحية الأنتروبولوجية ولكن في تركيا لا أحد يريد أن ينتمي إلى الجنس التركي باســتثناء المواطنين الكبار حيث أن ثلاثة أرباعهم هجين

[2] - كل ما قاله لي «سعيد آغا» أكّده لي العلويون وقنصل فرنسا في اللاذقية.

يوناني أو أرمني). أما العلويون فهم فقراء جداً..

- لو تكف عن إزعاجهم، لكانوا مزارعين شرفاء!

- مستحيل! الفقر في دمهم. إنهم يسعون وراء القتال، إنهم ديكة، فهم يتعاركون فيما بينهم كالديكة.. إنها قضية دم.. قضية.. آباؤهم وأجدادهم كانوا كذلك.

- أمـــن أجـــل والدك المحترم تقول هذا الكلام؟ قال الصـــديق كـــنجو وهو يدخل فجأة إلى الخيمة.. أي نعم والله.

هـــيا.. مـــاذا بعد! «كنجو» و«سعيد» أصدقاء، لقد جـــرى التعارف في القنصلية الفرنسية في اللاذقية وكذلك في عـــدة معارك.. لقد وعدني «سعيد» بتحرير القرية من الحامـــيات في نفس اليوم، وعند خروجه من خيمتي انحنى وهمس في أذني: «غداً عندما يأتي الفرنسيون ستفكر بي.. حينها لن أكون أسوأ من غيري من العقداء في الشرطة».

لا أدري إذا كـــان «الجْريد» في القرداحة يجري دائماً عـــلى هذا النحو في الاحتفال الذي يستمتعون به كثيراً.. لقـــد شـــاهدت ما هو أكثر رسمية وعظمة إلا أنني لم أرَ

احـــتفالات تهـــب المتبارزين هذا التشويق والحماس. أما مســـرح المبارزة فهو حقل قليل الحصى يقع أمام الساحة الصـــغيرة للقـــرداحة، أو كما يطلقون عليها اسمها المحلي «حـــاكورة القرداحة»!. وهي على شكل نصف دائرة، وراءها يقع منزل «مهنّا» وبيت آخر لا أعرف صاحبه..

كانـــت المنصة التي سنشرف منها على مسرح المبارزة عـــبارة عـــن مصـــطبة نصف مسقوفة، واجهتها المحدبة المواجهـــة لـــلحقل، تتكون من جدار حجري.. وتظلل المصطبة ثلاث شجرات تين وفي وسط هذه المنصة مطحنة غريـــبة.. جرن حجري ومدقة حجرية أسطوانية الشكل لتكســـير الحـــبوب. كان يتم الصعود إلى تلك المصطبة بواســـطة درجـــين صـــغيرين كل منهما يتألف من سبع درجات..

قـــام الأتـــراك بنصـــب أعلامهم وشعاراتهم في الجهة الأمامية للمنصة.. قدَّم لي أصدقائي العلويون كرسياً خشبياً صـــغيراً يكسوه القش.. كان «سعيد آغا» مهذباً إلى حد أنـــه لم يطالب به لنفسه، إلا أن ضابطاً تركياً قميئاً، سمح

لنفسه بأن يحتله بينما كنت واقفاً، فعاجلت قاعدة الكرسي بدفعة قوية من طرف جزمتي ناعتاً إيَّاه صراحة بالفاسد الشرير «أدبسيس»!! وبما أنهم ولغاية الآن، لم يسمعوني أتحدث سوى بالعربية، فقد تكفَّل السبك المتين والمنطقي للغة التي أستخدمتها بتحويل الغلظة العثمانية إلى رقة ولطافة كبيرتين.. ولقد اغتاظ الملازم مما فعلت به إلا أنه أدرك بأنه ليس الأقوى وكما يقول المثل التركي: «قبِّل اليد التي لا يمكنك قطعها». وكي يُعزِّي نفسه قام بتمسيد شاربيه وثنى قامته الطويلة.

في هذه الأثناء كانت التحضيرات «للجْريد» قد تمّت.. فقد جرى تقسيم المتبارزين إلى فريقين، حيث ضمّ الفريق الأول «كنجو» و«صافي» و«أحمد» وسبعة آخرين، أما الفريق المنافس فقد ضمّ «يوسف فاضل» و«حامد» و«مهنّا» مع عدد مساوٍ من اللاعبين. قام الأطفال بتوزيع العصي على المتبارزين الفرسان الذين سوف يقومون برمي العصي لبعضهم بعضاً أثناء المبارزة، أما حكما المباراة فقد كانا الأمير إسماعيل و«بريبهان» والدة «مهنّا»، وهي امرأة

طاعـــنة في السن قامت فيما مضى بإطلاق النار أكثر من مرة على الأتراك بل وأردت منهم قتيلاً أو أكثر..

لم تكـــن مكـــانتي وسمو قدري هما اللذان جعلاني أنا ومحفوض نتقدم إلى حافة المنصة بل الحالة المزرية لجوادينا.. كـــان صـــبر «مهنّا» قد نفد، لذلك كان أول من امتطى جـــواده وانطلـــق للقـــاء الخصوم. فكان أن انقضّ عليه «صـــافي»، غير أن «مهنّا» استدار بحصانه كي يعود إلى معســـكره، فأسرع «حامد» نحو «صافي» الذي كان ما يـــزال يلاحـــق «مهنّا» وهنا لم يكن بد من أن ينعطف «صـــافي» ويعود إلى «حامد» الذي فوجئ به وهو يرميه بالعصا، غير أنها لم تصب إلا عمامته فأوقعتها أرضاً.. ومر بي فارس جميل بعثر الهواء شعره الأشقر المسترسل.. غير عابئ بشعره أخذ «حامد» يطارد «صافي» الأعزل إلا أنه لم ينتـــبه إلا وقـــد اصـــطدم وجهاً لوجه بـــ«كنجو».. فافـــترقا.. وهنا أخذ «يوسف» يلاحق «كنجو» بشراسة وهـــو يلقي عليه «جريده» إلآ أن كنجو تمدد على ظهر حصانه فأخطأه الجريد.. وفي هذه اللحظة بالذات، أطبق

«حامد» على «يوسف» على حين غرّة، وقبل أن يسارع في العودة إلى معسكره، عاجله «حامد» «بجريده» ليلطمه بـين ضـلوعه، ثم فـرّ هارباً نحو رفاقه، فلاحقه «مهنّا» بحماسـة وألقـى عليه «جريده». غير أنه أخطأه. لاحق «كـنجو» «مهـنّا» في مـيدانه وتجنب خمس أو ست «جـريدات» ثم انطلـق هاربـاً يلاحقه «حامد» الذي اسـتطاع الحصـول على «جريد» جديد دون أن يغادر حصـانه.. أراد «صافي» أن يعيق «حامد» عن الملاحقة فـرماه بالعصـا. فلم يصب إلا قربوس سرجه، استدار «حامد» وعاد إلى صافي الذي مال جانباً حتى لمس ركاب فرسـه بيده ومع ذلك فقد تلقى «جريد» على ظهره من مسافة تقارب الخمسة عشر متراً.

حمي وطيس اللعب أكثر فأكثر، وتحمس اللاعبون إلى درجة أنهم أخذوا يتلاطمون ويتسابقون كل بجريده ولكن لـيس قـتال حراب بل قتال رماح.. وكانت النتيجة أن أصـاب «صافي» «مهنّا» خطأ وكاد «حامد» أن يخطئ تسـديده ويصـيب يوسف. وقد كان صرير البندقيتين

المعلقـــتين على جانب سرج كلٍ من الفرسين يسمع من بعـــيد بســـبب التحام الفرسين. أسرع الأمير إسماعيل إلى الميدان إلا أن العجوز «بريان» كانت قد سبقته.. وقدمت عصارة خبرتها في ساحة المعركة وشرحت كيف أن حامد قد أخطأ وخرج عن قواعد اللعبة.

غضبت فتيات القرداحة الجميلات لتوقف اللعب، كن يتشـــوقن لـــرؤية بعض المبارزات، وهاهو الشوط ينتهي بـــرؤوس دامية.. وبالمناسبة فإني أشير هنا إلى أن النساء لا يـــتحدثن مطلقاً إلى الأتراك، وبأن الرائعة «مريم» أخت «مهنّا» كانت تنزل خمارها حتى ذقنها عندما يمر سعيد آغا بجانبـــنا.. واسيت «سعيد آغا» بأن شرحت له الفرق بين ما ولّى من الزمن وبين سرعة تقدم الجيش الفرنسي. تحدثنا في السياسة وحول أمور الجيش وقد فهمت منه أنه بصدد الذهاب إلى موسكو أثناء انطلاق الفرنسيين إلى برلين.

- حلم جميل.. ليس سوى حلم.. ثم أنهى حديثه قائلاً وهو يأمر الجنود:

- إلى السلاح!

غـــادر الأتراك المكان.. كان الجميع راضين.. انتهت لعبة «الجريد» وبقيت حراً بمتابعة أبحاثي وتنقيباتي.

كـــان من دواعي الفرح مغادرة الأتراك للمنطقة، وقد غادروها مطأطئي الرؤوس،شعرت منذ الآن فصاعداً بأنني حر في تنقلاتي، أستطيع زيارة من أريدهُ ليرافقني في حلي وترحالي.

كان «مهنّا» و«حامد» وخمسة عشر شاباً من الجبيليين باستثناء «يوسف فاضل» و«محفوض»من عشائر ونواحي الكلبية وبني علي وبيت ياشوط كلهم بانتظاري.

عند عودتي إلى القرداحة، التقيت بشخصين لهما مكانة رفـــيعة ، وكان وجودهما بحد ذاته حدث استثنائي. كان الأول في الخامسة والخمسين تقريباً وهو ابن الشيخ الجليل «إبراهـــيم ســـعيد» وخليفته ويعتبر مرجعاً دينياً لعلويي الشمال.

أمـــا الثاني فيزيد الأول سناً وهو أيضاً ذو مرتبة دينية عالـــية هـــو «حسان الكناني» شعرت بالرغبة بالحديث والتشـــاور مـــع هذين المرجعين الدينيين، والحصول على

أسرار عبادتهم. شخصية حسان لم تعجبني البتة. كانت قسماته توحي بالمكر والتعصب. أما محاولاته اللجوجة الممتزجة بهيئته التي يشوبها الفضول الدائم فما لبثت أن جعلته كريهاً بنظري. فقد حاول جاهداً منع العلويين من أن يسمحوا لي بالتقاط الصور الفوتوغرافية لهم أو أن يسمحوا لي بأخذ قياسات أجسامهم، مهدداً إياهم بجهنم وبئس المصير الأمر الذي دفع بصديقي «كنجو» لإفحامه بهذا الرد:

- أي لوم توجهه له؟ إنه يقوم بتصوير كل فرد ثم يعطيه صورته ! كان من الأفضل لك أن ترجوه ألف مرة ليصورك، هذا إذا قبل، لأن قبحك المخيف سيمنعه حتماً من أخذ صورة لك.

وقد همس لي «كنجو» بعد أن وجه هذه الكلمات الزاجرة لذلك الشيخ منبهاً إياي بأن لا أعيره أي انتباه وبأن أستخف به لأن هذا الرجل المتدين جاسوس لتركيا.. أما يوسف فاضل، فقد فضل بأن لا أكثر من الحديث أمام الكناني لأنه بحسب اعتقاده: «كان بإمكانه أن يجعل

لوحين من الخشب يضربان ببعضهما ».. وحسماً لكل ما جرى تدخل الشيخ الفاضل ابن الشيخ إبراهيم سعيد ومنع زميله من التمادي بالإزعاج وألزمه حدوده بكل صرامة.

عــندما لُقّن الشيخ الكناني علناً هذا الدرس الذي لن ينســاه وعندما شرحت له بأني أعرف عن حياة علي بن أبي طالــب وعن الإمام جعفر الطيار أكثر مما يعرف هو غادرنا.. تخلصنا منه وحسناً فعلنا، وبعد ساعة من مغادرته سمــح لي الــرجال بأخذ قياساهم ، إلا أنه وبعد ساعتين أرسل لي الشيخ الكناني عصاً ضخمة من الخشب القاسي وقد كتب عليها أبياتاً من الشعر إليكم ترجمتها:

سألني رجل كريم عن اسمي

فقلت له بأني أدعى حسان

ومنذ القديم أكنى بالكناني

قدِّم لي كل ما يجود به سخاؤك

فسيكون لي نعم الذكرى

أعطيــت الرجل الذي جلب لي العصا قطعتين من فئة العشــرين فــرنكاً.. ومن الآن فصاعداً لن يكون هناك

متاعب وسيمكنني استئناف دراساتي دون جدالات دينية.

أمــــا «كــنجو» الــــذي كان يتقدم للمرة الرابعة لأخذ قياساته كي يعطي مثالاً مشجعاً للآخرين، فقال لي بينما كنت أقيس طاقته الصدرية:

– حسن.. بما أن يدك الآن تلامس قلبي، عليك معرفة ديــــني، لأنه موجود في الحنايا. ثم ابتسم وأمسك بالدفتر الصغير الذي أسجل عليه المقاسات.

في تلــــك اللـــيلة كـــان هناك عيد كبير.. وقد ذبحوا خــــروفين، وشاركت كل نساء الوجهاء في القرداحة في طــــبخ الطعام وإعداده.. وفي الساحة العامة على أطراف القـــرية التي تطل على الوادي جرى إعداد مكان العيد.. وقـــد خصَّ الوجهاء ببساط ، أما أنا فقد خصوني ببساط ومخدات..

كـــان أولاد زوجـــة الأمير إسماعيل، يقومون بواجب الضـــيافة.. وقـــاموا بمـــدّ سلك بين شجرتين حيث علّق مصـــباح كبير.. ؟! مصباح بترولي ؟ أوه أيتها الحضارة.. هـــاهي إحدى مفاجآتك!! أشعلت نار هائلة في الحقول

بالقرب من بيت الأمير محمد، وفي أكمة قريبة جرى طبخ الطعـــام في ثلاثـــة مواقد للنار من أجل الإسراع بتحضير الولـــيمة. أطلقـــت النيران من البواريد بكثافة على عادة العلويين في ساعات الهرج والمرج والفرح. كانوا يطلقون الـــنار دون وضع السلاح على الأكتاف بل يتركونه في راحـــة الكـــف الأيســـر وتكون الذراع الأيسر هابطة والذراع اليمنى مرفوعة قليلاً ، وريثما يتم تحضير الطعام، أحضـــروا لنا (أنا والوجهاء) طبقاً يحوي قطعاً صغيرة من كـــبد الضـــأن التي تمّ شيها على أسياخ. الوليمة المنتظرة أحضرت أخيراً وتم إشعال القناديل الكازية.. كان الأمير محمـــد، يشـــرف بوحـــي مـــن كرمه الأصيل على كل التجهـــيزات ويشرف بنفسه على إعداد المأدبة.. أحضروا لـــنا طاولة ضخمة مستديرة قطرها متران وارتفاعها عن الأرض حوالي عشرين سم، ثم وزعوا على أطراف الطاولة أرغفة خبز التنور.. كان كل رغيف يغطي ثلث الرغيف الـــذي يليه.. وفي وسط الطاولة صفت أطباق من المعدن المطـــلي بالقصدير وقد امتلأت باللبن الرائب، والكباب،

والــباذنجان المحشــي بلحم الضأن المفروم وبالرز والبصل والبندورة، ثم جيء باللحم المسلوق مع صلصة البندورة ثم طــبق الرز الكبير، كان لكل مدعو ملعقة خشبية.. وبدأ الجمــيع بالتهام الطعام بكل حماس، كانوا يتنقلون حسب العــادة من طبق إلى آخر وبين الفينة والأخرى يتجرعون اللــبن ثم يتــناولون قطعة من لحم الضأن، بعدها يمزقون طــرف رغــيف الخبز لكي يساعدهم بإمساك المحشي أو الــلحم ثم يغــرفون الرز بالملعقة ويلينون طعامهم بشرب اللــبن. إن العلــوي يأكل بسرعة كبيرة وبصمت. وبعد الطعــام جــيء بالبطيخ الأحمر والرمان، ثم قام كلٌ من الحاضرين بدوره ليغسل يديه بالماء الذي يسكبه فلاح من إبريقه ويغسل فمه وينظف أسنانه وشاربيه بالصابونه التي يســتعملها الجميع.. انتهى الطعام والاغتسال وبدأ نشاط من نوع آخر حيث انطلق العلويون بإظهار الفرح العارم والأمل الكبير الذي كنت أمثله لهم وذلك بإطلاق النار من مسدســاتهم عــلى بعد سنتمترات من وجهي.. كانت ســيوفهم وهم يلوحون بها تئزّ على مستوى أنفي وكانت

هذه التظاهرات تترافق مع أغانٍ يخالطها بعض النشاز..

بعد قليل جاء رجل عجوز كفيف وجلس بالقرب مني، كان يمسك بين ذراعيه آلة موسيقية. وترية تدعى «ربابة» ويجاهد بترق للعزف عليها ثم فتح فماً واسعاً وراح يصدِّع رأسي بغنائه وتنغيماته المخيفة.. يا إلهي.. ما هذا؟؟ يا لفرحتي الكبيرة.. يبدو أن هذا العازف الماهر الذي جلبوه ليغني على شرفي لم يعجب الحاضرين مثلما لم يعجبني، فطردوه، إلا أنه ما كاد يبتعد ويختفي حتى تعالت في الفضاء ضوضاء مريعة رددت الجبال أصداءها. إنه طبل العلويين الكبير.. وقد قدرت قطره بثلاثة أمتار.. إنه يُقرع في الليالي الحالكة، بكل ما أوتيت الذراع من قوة عند مدخل القرية، وما إن تعالت أصوات ضرباته المتواترة، حتى ازدادت حمية العلويين الذين لم يعودوا بحاجة البتة للشرب.. فاندفعوا نحوي بالطاسات والزجاجات يرفعونها عالياً ليشربوا نخبي.. وفي نفس الوقت كانت المسدسات تفرقع عند أذني وتسوّد وجهي بدخانها.. كان «مهنّا» يصرخ بأعلى صوته تلك الكلمات التي أمضى محفوض

يومـين كاملين وهو يعلمه إياها سراً «تحيا فرنسا» قالها بالفرنسية!

وكـي لا ننسـى القول المأثور: «عندما يتعالى صوت الطـبل فكـل النسـاء يتراكضـن» فقد أطلقت النساء زغاريدهن الحادة ثم انطلقت واحدة وقد أحاطت نفسها بكـل زينتها، تكسوها الحلي التي ترن كجلاجل البغلة، وبقفـزة واحدة كانت قد أصبحت وسط الحلقة جاءت وانتصبت أمامي، في جو تضاعفت فيه كثافة إطلاق النار والصـراخ والأغـاني وقرقعة الطبل.. باختصار.. كانت الضوضـاء مـن الشدة والقوة بحيث أن الجياد لم تستطع الصمود والبقاء في أماكنها فتخلصت من ربطاتها وانطلقت تجري بأقصى سرعة ترافقها البغلات التي جرت خلفها.

- لا تجـزع.. قالـت المـرأة، لن تضيع دابتك.. من سيسرقها؟ لا أحد.. وإذا سولت نفس أحدهم بلمسها.. فأنا من سيتكفل به.

بعد أن تلفظت المرأة هذه الكلمات والتي لم تكن سوى الأمير محمد متنكراً أخذ يعرض علينا بعضاً من مواهبه في

الرقص الإيقاعي؟! الذراعان ممتدان تمسكان منديلاً في كل يـــد.. كان الزعيم الشاب يدور على رؤوس أقدامه يقفز جانــباً وينقلــب إلى الخلف حيناً لتلمس قفا رأسه كعب قدمه ويتمايل حيناً آخر على وركيه وفي هذه الأثناء جاء مقــاتل أمرد وأخذ مكانه في الحلقة.. كان يغني بصوت حاد مقاطع في مدح الزعيم الشاب «محمد»:

أن تكون في الحرب، أن تكون في الصيد

أن ترتدي ثياب رجل، أن ترتدي ثياب امرأة

فستظل أنت نفسك بالنسبة لي

لم يكن هذا المحارب إلا زوجة الزعيم الشاب «محمد».

فاصل ترفيهي كوميدي تلا رقصة «محمود».. فقد أراد طــباخي «طــنوس» تهدئة الحاضرين فارتدى زياً مصرياً واتكأ على عصا طويلة وأخذ يقلّد راقصي القاهرة ولكن حركات الطباخ الالتوائية الخليعة لم تعجب قطاع الطرق الشــرفاء الذيــن تفوقــت عاداتهم على عادات أخوانهم السوريين وشاعت سمعتهم .

انكمــش «طنوس» لبرودة استقبال الحضور لما يقدمه

فآثــــر الانسحاب.. وإذا بشخص يرتدي الزي الأوروبي جـــاء لـــيجلس بجانبي.. لقد كان «مهنّا» بعد أن أفقده السكر رشده بالكامل. لقد استعار عن طريق «محفوض» واحداً من بناطيلي، وسترة قديمة، وقبعة مهترئة من اللباد. أراد أن يكـــون كمــــا يقـــول «عسكري فرنساوي».. ازدادت الضوضــــاء أيضــــاً وأيضاً ودارت الرؤوس بفعل العـــرق، إنهم يريدون النزول إلى اللاذقية ليرموا الأتراك في الـــبحر وليطلبوا الحماية من فرنسا.. ثم بدؤوا نقاشاً حاداً فيما بينهم تلاه تبادل لكمات كاذبة «خراطة» وخرجت اليطاقانات من أغمادها.. وفي الحقل، حول النار المتأججة، أخـــذت الحلقة بالهرج والمرج مع تعالي صرخات الفرح.. وانطلقت الأغنية:

وصل السيّد الفرنسي بيننا
وجوده من سعد طالعنا
ينبئنا أن فرنسا ستعطينا السلاح
سلاحاً، بنادق ومدافع
لنطرد المدراء والولاة والأتراك

كي نكون عسكر فرنسا..

هيه، هو

كان كل فرد يقفز في الهواء وقبل اللازمة كانت تتعالى هذه الأبيات:

«على كل الشباب أن يتسلوا

هيا إلى الرقص»

وقـــد انتهت هذه السهرة الصاخبة بحادث درامي ليس المجال مناسباً لذكره هنا..

في الـــيوم الـــتالي غادرت «القرداحة» ذاهباً إلى قرية «المزيـــرعة» مسقط رأس «كنجو» ومقر إقامته وفي لحظة الانطلاق جاء «مهنّا» ووالدته وأخواته يرجونني الدخول إلى مترلهـــم للمرة الأخيرة كي أتناول وإياهم جميعاً طعام الـــوداع. ولأن مـــترل «مهنّا» يصلح لأن يكون نموذجاً لمسكن زعيم علوي ارتأيت أن أصفه لكم..

البيت مبني من الحجارة الجافة، يتألف من طابقٍ واحد. هـــيكله الهندسي رباعي طول الضلع فيه يُقارب العشرين متراً.. جدران البيت «مطلية» بطبقة من الصلصال الذي

تصـــنع مـــنه جرار ضخمة لحفظ المؤن.. وقد زينت تلك الجرار من نصفها الأعلى بزخرفات ذات خصوصية بحتة.. وهي عبارة عن شبكة نافرة غير منتظمة مرتبة على شكل ثقـــوب في الشبكة حيث أن عقدها تشكل الحلقات.. أما ثنية كل عقدة فقد تشكلت بواسطة ضغطه من الإبهام في الطين الليّن.. وفي أسفل الجرار هناك فتحة سدّت بسدّادة خشبية وعند سحبها تنهمر الحبوب التي تملأ الجرة..

الدخول إلى المنزل يتم عبر بابين مقوسين، يقع أحدهما في الجهـــة الكـــبيرة من المنزل، والآخر في الجهة الصغيرة. وهناك نافذة وحيدة تقابل باب الجهة الصغيرة.

يعلـــو الـــباب من الجهة الكبيرة إناء ماء مبارك ومن الجهتين اللتين تحيطان بالباب الكبير فتحتان مستديرتان أو مربعتان حيث تساعد الأولى في تيسير انطلاق روح ساكن البيـــت الـــذي يشرف على الموت.. والثانية تمثل مدخلاً لروح طفل قادم إلى الحياة.

أمـــا ســـطح البيت فقوامه جذوع أشجار متكئة على أربعـــة ســـواميك (أعمدة وهي أيضاً عبارة عن جذوع

أشــجار تختلف عن تلك التي في السطح، وهم يحتفظون بمســاحات من الفروع الرئيسة للأغصان) وضعت دون تنســيق في كــل غرفة، أما الفتحات التي تظهر من بين العوارض المتكئة فقد سدّت بنبات شوكي ثم طليت جميعها بطــبقة من الصلصال الممزوج بالرمل وحبيبات الكلس.. أطــراف السطح حُفِرَتْ فيها قناة لجر المياه الهاطلة فوقه.. وعــلى العمــوم، كان يمكن نزع العوارض من السطح (أتحــدث هنا عن البناء في القرى البدائية)، فالعلويون لا يتورعون عن نزعها عندما يهاجمون على حين غرة للدفاع عن أطراف القرية.

بجانــب المترل تنتصب صقالة مؤلفة من أربعة جذوع ترتفع ثلاثة أو أربعة أمتار عن الأرض تنتصب فوقها خيمة من العوارض الخشبية تستعمل كغرفة نوم في أيام الصيف، ويتم الصعود إليها عن طريق سلّم صغير يرفع بعد الصعود إلى هذه الخيمة (العرزال).

لا يوجــد أي أثــر للأثاث داخل البيت.. هناك مقعد طيني على طول الجدار في غرفة الاستقبال وبعض الأباريق

مـــن الفخار، قطعتان أو ثلاث من اللباد الأبيض ،(طاولة كـــبيرة مـــن القش ملقاة في الزاوية بجانب قدور معدنية وأدوات الحراثة..).

أما أسرة الأطفال فهي عبارة عن صندوق من الخشب زينـــته الأم بـــبعض النقوش. وعلى باب المدخل، علقت أســـلحة متنوعة من خناجر وسيوف.. ولم أعثر على أثر للأثاث المترلي.. ولا يوجد أي صندوق لوضع الثياب.. إذ إن الجـــرار الفخارية تقوم مقام الخزائن والصناديق ،كدت أنسى أن أذكر ماعوناً يكاد يكون موجوداً في كل البيوت الـــثرية: إنـــه الكاز. كانت خيوط التبغ معلقة بعوارض الســـقف كـــي تجف، إذ أنها في الشتاء تتعرض للرطوبة، لذلك فإن تعليقها في الغرفة التي يكون الموقد فيها يكسبها لوناً غامقاً ورائحة مميزة أعطتها لقب (تبغ أبو ريحة).

وهذا التبغ المعروف بلقب «أبو ريحة» يتم مزج العشر مـــنه بتسع أعشار من التبغ العادي وهو يعرف عندنا في فرنســـا باســـم «تبغ اللاذقية» ويباع في اللاذقية نفسها بضعف ثمن التبغ العادي تحت اسم «التبغ البلدي».

في الطريق بين القرداحة والمزيرعة كانت عيناي تجولان فوق مناظر فريدة تسحر الألباب.. المنطقة بأكملها بركانية كسيت بطبقة صلصالية حمراء وبيضاء، وهي اليوم من أخصب الأراضي..وعلى المدى انتصبت أشجار حور فتية، وخضرة السنديان تميل إلى السواد، تين بري عملاق، وزيتون زرعه الله يمتد على طول المنحدرات، أما الأعماق فهي محرشة بالريحان والشيح ، وفوق القمم كان العشب الأخضر اليانع يمتد مسافات بعيدة ويفوح بألطف الروائح العطرية وخصوصاً زهرة العطاس التي كانت تطغى على بقية النباتات.

وهنا وهناك انتصبت قواعد لصخور بازلتية سوداء عارية وقاسية وأكمات كلسية عاجية اللون صقلت جيداً بفعل الأمطار والسيول إلى درجة إنها جعلتها ملساء كالمرآة بحيث كانت الجياد تعاني كثيراً في الثبات فوقها، وكان هناك أيضاً صخور ضخمة متدحرجة على طول المنحدرات.

كنا ننتقل من تلة إلى مضيق ومن مضيق إلى تلة وفي

بعـــض الأحيان كنا ندور حول قمة إحدى التلال ونحن نقـــتفي تعرجات سيل يفضي بنا دائماً إلى الانحدار نزولاً، فوق تكدسات من الركام الكلسي الزلق، أو على حواف بازلتـــية ضـــيقة وحـــادة وأحياناً كنا نشق طريقنا وسط أحـــراش كثيفة من الخليج والريحان حيث كانت حوافر خيولنا تغوص فيها حتى السرج.

رافقني في رحلتي هذه شابان قويان من العلويين.. كانا يعـــدوان أمامـــنا والبنادق تتمايل على ظهريهما.. ظهر «كنجو» بمحاذاتنا وقد بدت لي تصرفاته مريبة وغريبة.. كان يظهر لنا حين يسير في الأماكن العارية ليعود بعدها ويخـــتفي وراء الشـــجر الملتف ثم ليعود ويظهر من جديد ويهبط إحدى الصخور الضخمة بأقصى سرعة فقط ليسلم عـــليَّ ثم ليعود ويتسلق قمة يتعذر الوصول إليها فيما هو يمـــتطي جواده وينطلق به كسهم النار. وقد توقف وأطلق صـــرخة، لا أدري إن كانت إشارة صوتية أم إنها صرخة نداء ما، وقد رد «يوسف» عليها من أسفل الجبل بصرخة مماثلة..

يـــا إلهـــي!! كيف لم يدق عنق الصديق «كنجو»؟ لم أســـتطع الإجابـــة سوى بأنه ثمل تماماً.. فقد ارتمى على حصانه بحركات جنونية وقام بنقل ساقه فوق رقبة حصانه واندفع إلى الداخل في الممرات الأكثر خطورة، ثم استأنف جريه مفرشخاً ومترنحاً على سرجه..

من وقت لآخر كان المرشدون يغذون السير مسرعين ليسبقونا كي يتفقدوا المسالك، وعندئذ كنا نسمع بعض الطلقات النارية المتبادلة كإشارات متفق عليها فيما بينهم.. ثم عرفـــت بأنـــنا وصلنا إلى «ساكال توتان» أي «ذبح الرقبة» وهي كلمة أو تسمية تركية تعني حرفياً: «ساكال = اللحية وتوتان= نحر أو ذبح».. كان «ساكال توتان» ممـــراً ضيقاً لدرجة أن قاطع الطريق الكامن فيه قادر على الإمساك بك من لحيتك دون أن تكون لك أدنى قدرة على تحاشيه..

وبعـــد أن اجتزنا ثلاثة مدرجات جبلية ومرجاً منبسطاً نزلنا إليه عبر خوانق مخيفة حقاً حيث نزل العديد منا عن جـــيادهم وســـاروا نزولاً على أقدامهم أخذنا قسطاً من

الــراحة عــند نبع جميل يتدفق فوق المنحدر تحت ظلال شــجرة تين برية رائعة تشبه شجرة تين البنغال. ثم تابعنا سيرنا نحو أطلال وخرابات قريتين احترقتا منذ وقت قريب إثــر خلافــات بــين العلويين، وهاتان القريتان تخصان المهالــبة.. ثم دخلــنا مدرّجاً جديداً، ولدهشتي الكبرى لاحظــت بــأن هــذا المدرّج قد استغلت أرضه بشكل مقبول..

اقتربــنا الآن مــن منطقة «كنجو»، وصلنا إلى القرية الأولى وتدعى «دباش» بناؤها مميز وبيوتها مطلية بالكلس وبقــربها طاحونتا ماء لا تدوران إلا في الشتاء وذلك عند تدفــق سيول رافدة للنهر الكبير. أما في هذا الفصل فقد انخفض مستوى منسوبها وهذا ما جعل الطاحونتين تتوقفان عن العمل.

جــاء بعض شباب «دباش» للقائنا وقد ألحّ «كنجو» علينا بالصعود والدخول إلى منزل يبدو أنه الأكثر يسراً.. يــا للروعة! الغرفة مطلية بالكلس وهناك مدفأة بزاويتها.. لقــد علمــت فيما بعد أن صاحب هذا البيت مسيحي يوناني.. لقد قلت جعلنا نصعد لأن الفسحة تعلوها غرفة

تشـــكل الطـــابق الأول.. ولابد لي من وصف الغرفة من الداخل، بجانب المدفأة فتحتان في الجدار ومن الطبيعي أن تحـــوي كل فتحة قنديلاً نفطياً، وفي الفسحة أمام الغرفة فرشت الحنطة للتهوية.. أباح «كنجو» لنفسه السير فوق القمح الذي فرش بكثافة في الهواء الطلق وهو ينتعل جزمة ذات كعـــب حديـــدي.. كان يعتبر نفسه خفيف الظل، وأعـــتقد أنه كان لا يزال سكران.. ورغم أن السُّكْر بدأ يغادره شيئاً فشيئاً إلا أن هذا لم يمنعه من إزعاج صاحب الدار الزعيم المسيحي للقرية بالمزاح السمج وبالهرج.. غير أنني أعود وأقول وبالطريقة الباريسية الشعبية بأنه لم يتعد حدود المزاح..

بعد مغادرتنا «دباش» وصلنا مسيلاً نزلناه عبر مداميك بازلتـــية رائعـــة الجمـــال فوق جسر قديم يدعى «جسر الشحادة» والذي اشتهر بأنه أخطر من «ساكال توتان» الذي مرّ ذكره .

بعـــد مغادرتـــنا «دباش» وصلنا وهدة.. وبدت تحت أقدامـــنا ونحـــن نهـــبط هذه الوهدة صخور بازلتية رائعة الجمـــال.. كانـــت الوهدة تصل إلى جسر معروف كما

أسلفت قبل قليل هو «جسر الشحادة».

اختفى «كنجو» خلسة.. ففي هذا المكان استطاع الفرار من الأتراك بعد أن حطّم قيوده وصرع بواسطة حطامها ستة من الأتراك.. دخلنا وادياً واجتزنا منحدراً كلسياً زلقاً، وعراً بعض الشيء.. تعالت بضع طلقات لتحيتنا واندفع «كنجو» يعانقني.. نحن الآن في «المزيرعة». كانت حوائجنا قد سبقتنا ليلة الأمس تحت حراسة شديدة، أما خيمتي فقد نصبت في الجهة الغربية للقرية. فضلت أن أذهب للنوم، رغم توسلات «كنجو» الذي كان يريد تقديم واجب الضيافة غير أنه كان بالغ اللباقة ليفهم سبب عزوفي عن الذهاب إلى بيته.. سألني قائلاً:

- إنه القمل.. أليس كذلك؟

- بالضبط. حتماً العدد أقل بكثير في خيمتي..

جلست على كرسي عند جذع شجرة، اثنان أو ثلاثة من عائلة «كنجو» جلسوا القرفصاء من حولي. أراد واحد من أولاد عمه الشباب أن يريني مهارته في التصويب من

بندقـــية إلا أنـــه اغتاظ كثيراً عندما أخطأ الإصابة خمس مـــرات متتالية.. واندفع اليافع «هاني» ابن «كنجو» ذو الاثـــني عشـــر عامـــاً..كان بالغ السرور وهو ينتزع مني مسدّســـي رغم أنفي محاولاً التصويب الجيّد إلا أنه أخطأ التصـــويب وكاد يصيب عيني بدلاً من هدفه،.. فما كان مني إلا أن أطلقت فوق رأسه مباشرة ست طلقات متتالية مـــن مسدسيّ الذي بقي معي.. وهو يبدي الفرح الكبير والحبور العظيم..

اجـــتمع الناس على مسافة متر واحد و«كنجو» يتنقل فيما بينهم بانشغال كبير.. أيها المتقلّب؟!

كـــان «يوســـف» قد أكّد لي بأنه يشتعل حباً وغراماً بالأخـــت الصغرى لـــ«مهنّا» وقد طلب يدها للزواج، ولاحظـــت عـــدة مـــرات بأنه يدير الحديث ويحوله إلى موضـــوع آخر عندما يأتون على ذكرها أمامه.. وللأمانة فإن أختيّ «مهنّا» تتميزان بجمال ظاهر.. فالصغرى تتميز بشعر أسود وأنف دقيق ومظهر ثائر، في حين أن الكبرى «مريم» والتي هي في فترة حداد تشبه الجوكندا كما تتشابه

نقطتا ماء إلا أن «مريم» كانت أكثر شقرة..

وأخـــيراً عاد «كنجو» وظهر ثانية وهو يجر بيده امرأة قبيحة بعض الشيء، تحمل على ذراعها طفلاً رائع الجمال عمره سنة ونصف وتتظاهر بعدم الرغبة بالتقدم.. غير أنه تغلب على حيرتها وأجلسها عنوة بجانبي.. وهنا أخذ هذا الجمـــال الفاتن يمط فمه بطريقة مخيفة لتبدأ تلك المخلوقة التّقسيم مصعّدة صراخاً مفزعاً ثم رفعت صوتاً حاداً قادراً على خرق طبلة أذن منيعة لتعود بعدها وتزعق بسمفونية ارتجلتها إكراماً لي. كان «كنجو» يصفق عند كل مقطع صارخاً: الله! الله! ثم قام ليقبل هذه الفنانة الموهوبة!! كان مفـــتوناً وهـــو يراها تظهر مواهبها أمامي.. لقد كانت خادمـــته وحاضنة طفلته الصغيرة الجميلة التي تحملها بين ذراعيها.. كان علي أنا أيضاً أن أقبّل هذه الحاضنة المولعة بالموســـيقى وقـــد فعلـــت ذلك وأنا مبتهج لكونها أنهت وصلتها الغنائية.

وخلال كل هذا الوقت كانت طاسات العرق تسكب وتشـــرب، أمـــا «كـــنجو» فقد أراد أن يريني بعضاً من

مواهبه.. تراجع إلى الخلف حوالي عشرين متراً حتى صار بين أهله ثم رجع نحوي وهو يغني ويصفق بيديه، ويرقص رقصة ابتدعها لتوّه.

كـــان رقصـــه لا يقل رصانة عن رقص «لويس الرابع عشر» في فرساي، أو الملك داوود أمام الفلك.. وبدوره أخذ اليافع «هاني» يرقص ويغني احتفاء بي تحت أنظار أبيه الحانية، وكان عند نهاية كل مقطع أو لوحة راقصة يتقدم نحـــوي ، ويتجرع طاسة العرق نخب شرفي، وما إن جاء المقطـــع الـــثامن في أغانيه ولوحاته الراقصة حتى بدأ هاني بـــالأنس لي والتعامل العفوي معي لينتهي الأمر به جالساً عـــلى ركبتي، وبالكاد فعل ذلك حتى دوّت فرقعة مصمّة وأزت رصاصـــة قرب أذني كادت تصيبها! إنها بندقية ابن العـــم الذي اقتنع بالذهاب! كان يفخر لنجاحه في ثبات تصويبه إلى الهدف. أما اليافع «هاني» فقد أصابه الهلع وبدا علـــيه الفزع الشديد.. وقد لاحظ «كنجو» بأنني تعبت واكتفيـــت مما رأيت فانسحب نحو القرية يرافقه يوسف فاضل، وفيما كان هذان الظريفان يتبادلان المزاح، شعرت

بـأني تنفست الصعداء إذ أنني أستطيع الآن الالتفات إلى نفسي والنوم بهدوء وللمرة الأولى منذ أن وطأت أرض هذه الجبال.

في اليوم التالي، وعند طلوع الشمس باكراً، صعدت إلى الذرى المحيطة كي آخذ بعض البيانات من أجل مقارنتها بالمعلومات التي جمعتها في «عربين»، و«القرداحة»، و«بيلون»، و«كتف البير».. لقد شدت أنظاري جدران حديثة وجيدة البناء إلا أنها اسودّت بفعل النار، علمت بأنها كانت جدران قلعة صغيرة بناها الأتراك للسيطرة على هذا الجزء من الجبال، وقد استولى عليها الجبليون وعلى رأسهم «كنجو»، منذ حوالي سنة قبل مجيئي، وقد أحرقها بعد أن استولى على الحامية بحدّ السيف.. ثم شارك «كنجو» في معركته تلك اثنان من أقربائه من ذوي الوجوه المشرقة حبوراً، وأثمرت جهودهم عن طرد عدد من الجنود الأتراك.. وقد علمت بكل هذه القصة من الشابين، عندما أخبراني بما حدث بكل هدوء وتواضع على الطريقة العلوية عندما يتعلق الأمر بالمآثر والمفاخر،

فـــالعلويون وكمـــا قلت سابقاً من أكثر الرجال سعادة وأكثرهم حيوية، إلاّ أنهم أيضاً أقلهم تبجحاً وتفاخراً..

في تلك الليلة أيقظني صوت محفوض المخادع:

- سيدي.. سيدي..

- ماذا هناك.. فلتذهب إلى الجحيم، دعني أنم!

ـــ ســـيدي، إنهـــم جماعـــة جاؤوا لرؤيتك ويأملون باستقبالك لهم!

- من هم؟

إنهـــم «مهـــنّا» و«حـــامد»، وآخـــرون من أهالي القرداحة..

وهنا أفقت جيداً من نومي.. آه.. أيها الشجعان!! لقد كابدوا مشقة السير لمسافات طويلة واجتازوا أمكنة كثيرة ســيراً على الأقدام كي يسلموا عليَّ في الساعة الواحدة والنصـــف صباحاً.. يبدو أن العلويين متعودون كثيراً على هذه الساعة من الليل للتنزه!! أيقظ «محفوض» «طنوس» بقدمـــه واستطاع هذا الأخير وبصعوبة بالغة أن يحضّر لنا شيئاً يوفر بعض النشاط لي ولضيوفي الكرام «مهنّا» وابن

أخـــيه، حامد والجميلة «مريم» أما البقية ومن بينهم المارد «حســـان أغيس» والفراري فقد انطلقوا لتناول الطعام في المطــبخ.. لم يظهر «كنجو» مطلقاً رغم أنه علم بمجيئهم ولـــو لم يكـــن الأمر كذلك لاستمعت إلى نباح الكلاب وطلقـــات البنادق ذلك أن العلويين يحترسون ويبالغون في الحذر على الدوام.

كـــان مـــن دواعي الحذر عدم إلقاء أي سؤال حول خـــروج شباب «القرداحة» في الساعة الواحدة والنصف صباحاً علماً بأنهم قد بينوا لي سبباً ظاهرياً وهو أنهم قدموا لـــرؤيتي تـــرافقهم امـــرأة شابة، ومن المؤكد أنها تحمل مسدســـين في نطاقها، وقد سألني «مهنّا» فيما إذا كنت أرغـــب بالنزول معهم حتى أدغال منطقة الصنوبر، حيث كـــانوا يريدون الوصول قبل طلوع الفجر! لماذا؟ هذا أمر يخصهم.. وفيما كنت أتناول بندقية الصيد قالوا لي بأن من الأفضل أن آخذ سلاح «رمنفتون» بسبب كثرة الخنازير البرية في تلك المناطق وبأنني ربما أرغب في الصيد بها..

«يوسف فاضل» كان أكثرهم حماساً لفكرة مرافقتي.

آه.. لـــو أن الشراكسة المساكين كانوا هنا! ولكن كان عليّ إرجاعهم إلى مواطنيهم في اللاذقية وهم يعانون من الحمى المهلكة.. فعند عودتي علمت بأن «رستم» كان قد مـــات هـــو أيضاً.. كان مزاج «مريم» رائعاً وقريباً إلى الـــنفس. وبمـــا أنـــي كنت أسخر من الطريقة التي كان العلويـــون يـــتزوجون بها، دون أن يكون للمرأة رأي في الموضوع فقد أكدت لي مريم بأن هذه العادة كانت تجري عند الفلاحين فقط، أما المرأة ذات الأصل النبيل مثل مريم فهـــي لا تتزوج إلا بإرادتها.. ولكي تقنعني أكثر اندفعت لتشرح لي كيف يكون الأمر بين كبار القوم أثناء الاتفاق الأولي والســـري لفـــترة الخطبة، فقد أخذت بيد أخيها «مهـــنّا» واتكأت بظهرها على ظهره، يدها اليسرى بيده اليسرى ثم أرجعت رأسها وأمالته على كتف «مهنّا» وقام «مهنّا» بنفس الحركة حتى تلامست وجنتاهما. وقالت لي أثـــناء قيامها بالمشهد يجب أن يكون هناك مشاعر متبادلة ليتبادلوا وعداً بالزواج بعد أن يمهر بقبلة!»

القصيدة الغزلية المشهدية انتهت بإطلاق صافرة لإخطار

الرجال بالسير وهكذا توجهنا نحو أدغال الأشواك في قرية «الصنوبر».

إلا أنـــني أرهقت ساقيّ إرهاقاً شديداً، ففي تلك الليلة الحالكـــة السواد والتي غاب القمر عنها كان عليّ تسلُّق الصخور كما يتسلقها العلويون أي جرياً تقريباً وقفزاً من صـــخرة لأخرى، وخلال ساعة كانت ذاكرتي تستدعي بإلحـــاح حـــوارات «فلســتاف» الذاتية مع نفسه. إنها حوارات رائعة تلح عليّ وخصوصاً هذان البيتان الشعريان:

«سأفضـــل المـــوت جوعاً على أن أخطو خطوة نحو السرقة!

عـــندما تكـــون التسلية بعيدة وخصوصاً عندما أكون راجلاً فأنا أكرهها!»

لقـــد أعادني المارد «حسان أغْيَس»، ليس إلى حصاني ذلك أنني لم أمتطه، ولكن إلى خيمتي في «المزيرعة» وإلى سريري حيث استسلمت للنوم حتى الخامسة صباحاً وهي الساعة التي كان أصدقائي الطيبون يفكرون بكل شيء إلا بالغناء الصباحي!!

عند الظهر ودّعت «كنجو» وامتطينا جيادنا للنزول إلى اللاذقـــية حيث كان عليّ دراسة آخر سلسلة من كتف الجـــبل الشمالي المنفصل عن قمة جبل «الأربعين» حيث كانـــت تبدو ذرى هذه السلسلة كأنها سهل عشبي كان الاخضـــرار الغـــامق للأعشاب يشق سطح الماء الأزرق والمشمس للبحر المتوسط وعند الأفق يعكس البحر أشعة الشـــمس لاهـــبة ليبدو على صفحته منجل ذهبي يخطف الأبصـــار.. يرتسم من بعيد كتنبؤات لامعة يظللها لونان يكملان بعضهما بعضاً.. الليلكي والرمادي.

تحـــت قمة جبل الأقرع، خلف أول امتداد للهضاب الكلسية تنتصب جبال صهيون، وقد وشحت بظلال من الاخضرار الفاتح حيث تتلاعب أشعة الشمس المشرقة على طول هذه الجبال.. من أمامنا وعن يميننا تبدو القمم العالية لجـــبل الأربعين ومنحدراته بلونها الأخضر الغامق، تابعنا النزول، لقد اختفى البحر الآن.. وتوغلنا في الخوانق على ســـطح إحـــدى الهضـــاب المنحصرة وسط حلقات من تدرجات تضاريسية مررنا بجانب شجرة يابسة، يحيط بها

سور من الحجارة المرصوفة الجافة! إنه مكان مقدس لدى العلويــين، وعند أسفل هذا المزار عبرنا «وادي الدبيب» وهـــو وادٍ رائع تغطيه الأعشاب الكثيفة، تعطر جو المكان أزهـــار الخريف! ويبدو أن رفاقي العلويين لشدة تعودهم عـــلى هذه الروائح لم تعد تجتذب أنوفهم بقدر ما يجتذبها حقل بطيخ.. فما إن وقعت أبصارهم على بضعة فلاحين يستظلون بظل خيمة بالقرب من حقل البطيخ حتى أسرعوا الخطـــى نحوهم ليشتروا فاكهتهم المفضلة إلا أن الفلاحين حين رأوا جري الفرسان نحوهم شمروا عن أرجلهم وبدأوا الركض هاربين.. غير أن ماأعاد لهم بعض الطمأنينة هو رؤيتهم لمظلة التابع السياسي البطرس أبو سليم.. استمرت الملاحقـــة المثيرة وطالت حتى اقتنعوا بعدها بأنه من العبث الهـــروب جرياً على الأقدام في حين أن المطاردين يركبون الجـــياد.. وتساءلت: هل أولئك الفلاحون مسيحيون أم مســـلمون؟! إلا أنـــني لم أحـــاول الاستعلام عن ذلك لانهماكي بالتفرج على العرض المثير للمهارات التي تجري أمـــامي، إنهم أناس لا يفوتون فرصة للتسلية والمرح.. إنهم

أناس سعداء، هاهو يوسف فاضل يتحدى «محفوض» في أنـه يسـتطيع نزع كوفيته عن رأسه بعد أن استطاع هو نزعها عن رأس الأخير بكل مهارة وخفة.. إلا أن هذه لم تكـن غنيمـته الوحيدة في ذاك النهار كان الشاب سليم وبعـد أن نـاول والده البطيخ الذي اشتراه لتوه يريد أن يشـاركنا دعاباتنا، إلا أنه ما كاد يفعل حتى وجد نفسه وقد طار طربوشه ومظلته وانقطع أحد أزرار صدرته دون أن يـنجح في انـتزاع هدابة واحدة من شرابات كوفية «يوسف»!!!

بعـد اجتيازنا وادي الد بيب، صعدنا جبلاً ذا مشهد خلاب كثرت فيه أشجار التين والخرنوب والصنوبر الحلبي الذي يكثر في هذا السفح الغربي. بالقرب من القمة وعلى ضفة أحد الينابيع كانت بضع نساء يغسلن الثياب، تابعنا الصعود ثم توقفنا عند بيدر حيث كانت بقايا القش والتبن تدل بوضوح على درس القمح أو بالأحرى مرج القمح، وهـي الطـريقة البدائية التي يدرس بها القمح. حملت لنا بعـض النسـوة الماء.. كان هناك رجل يفترش قطعة لباد

تحـــت إحدى أشجار الخرنوب، تناولنا الغداء بالقرب من معبد صغير مربع الشكل تعلوه قبة بيضاء يضم قبراً لشيخ جليل هو الشيخ غريب بالقطرية، وهو شيخ يحترمه ويجل ذكـــراه على حد سواء كل من المسيحيين والعلويين. وقد حدثني يوسف وبكل جدّية واحترام عن برهان من براهين هذا الشيخ.

«مـــرّ هذا الشيخ في القرية التي تحمل اسمه وعبثاً كان يطلـــب مـــن أصحابها البخلاء إعطاءه الخبز.. ومنذ ذاك الوقت لم يعد بإمكان أهالي القرية صنع الخبز فيها بل إنهم اضطروا للذهاب إلى قرية مجاورة ليقوموا بخبز عجينهم.. ولكـــي يقنعني بصحة هذا البرهان الذي لم يستطع إبعاد الشك لدي بقصته فقد أشار لي يوسف الطيب إلى حجر يســـتقر في أســـفل الســـهل، وأكد لي أعجوبة «الشيخ غريب»، هي في ظهور ديك أبيض يقف على هذا الحجر مرتين في السنة ويصيح ثلاث مرات وعندها تصمت ديكة المنطقة لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة.. تجاوزنا السهل، ووصلنا إلى اللاذقـــية ونحن نتجاذب أطراف الحديث عن أعاجيب

الأولياء وبراهينهم..

بعد عودتي إلى اللاذقية استطعت أن أخلص إلى نتيجة تقييمـــية حول أولئك الناس الذين عايشتهم.. إلا أنني أود قبل ذلك أن أشير إلى حسن الضيافة التي قدمها لي قنصل فرنسا السيّد «جيوفري» والتي تجعلني أقول بأنه واحد من أولـــئك الـــرجال الذين يشرّفون بلدنا في الشرق وذلك للوجـــدان الـــذي يتمـــتع به وللنشاط المتميز لشخصيته وللتواضع في مسلكه.. كان منزل السيد «جيوفري» يقع عـــند زاوية أحد الشوارع الضيقة التي تتألف منها مدينة اللاذقـــية. وهـــو مـــنزل مبني على الطريقة العربية، درج خارجي يفضي إلى فسحة تظللها حصيرة من القصب ومن حولها غرف موزعة.. مدخل هذه الساحة يقع بالقرب من الـــباب الـــذي يطل على الدرج حيث يقع أيضاً مكتب السـّـيد «جيوفري» في هذا المكتب كانت تعقد لقاءات المكـــروبين واليائســـين مـــن مهاجرين شراكسة ورعاة تركمانـــيين وفلاحين علويين وبدو.. كانوا جميعهم يأتون ليبثوا السيّد «جيوفري» مآسيهم وشكاويهم وهم على ثقة

من حصولهم على الدّعم والحماية..

أعود للحديث عن كل أولئك الذين عايشتهم. لا أقول بـــأنهم يمتلكون أفكاراً واضحة حول ما يعنيهم وما يعني الآخر، إلا أن عادات السلب والنهب المتفشية في هذا البلد كلــــه تعود خصوصاً إلى الفوضى وغياب السلطة القانونية التي تمثل شعب هذا البلد، فهذه الفوضى التي سادت قروناً عديدة أدت إلى ما نراه من تسيب أمني.. وقد أخذوا على الحكومة التركية استبدادها وطغيانها، إلا أن هذا الاستبداد كـــان يظهـــر عـــلى شكل نزوات أو فورات في أوقات متـــباعدة، في حين أنه في ما عدا ذلك فإن الأمور كانت تســـير على سجيتها دون أن يكون للطغيان أي أثر على الإطلاق، وهنا، أود أن أشير إلى أنه بانتهاء العهد الروماني سادت عهود من الفوضى استمرت حتى اليوم، ولا أبالغ أبـــداً إذا قلت بأنه لم يكن هناك في الشرق على الإطلاق شيئ يمكن تسميته بالحكومة أو بالإدارة. وأعتقد بأن اليوم الذي ستذوق فيه هذه الشعوب محاسن الإدارة المنظمة فإنها ستنضوي سريعاً تحت لوائها بكل عرفان بالجميل حتى وإن

كانـــت بأدنى مستوى من التنظيم الإداري. وهنا أود أن أشير في هذا المجال، بإن على هذه الإدارة أن لا تثير أياً من النعرات الدينية أو الإثنية.. وفي حال حدوث أي نوع من النعرات فعلى الدولة التي أتكلم عنها في حال قيامها، أن لا تكون فقط حيادية بل لا مبالية بصفة مطلقة.

كانـــت رحلتـــنا الأولى باتجاه ضواحي اللاذقية حيث الحدائق التي يمتلكها بعض الخاصة تحوي آثاراً لحضارات تتالت واندثرت في هذا البلد الذي يتخبط اليوم في البؤس دون أن يكون للبشر والأرض أي ذنب فيه.. الحدائق هنا تظلـــلها أشـــجار الليمون والأكاسيا وأشجار الميس إلى جانـــب أشـــجار ذات أوراق مخرّمة تشبه أوراق أشجار الفلفـــل.. في وسط الحديقة مصطبة بعلو مترين، تستخدم كخزان للماء، ومن هناك تنطلق أقنية حجرية تتوزع على المـــراعي لســـقايتها. كل هذه الحدائق كانت رياضاً غناء وارفة الظلال.. من بينها واحدة تخص عجوزاً تركياً، أتاح لـــنا أن نـــرى أطلالاً لمعبد مدفون يختفي عندما يكمل العجـــوز التركي بناء منزله الذي يزمع القيام به.. يتشكل

هـــذا المعـــبد من نقش بارز في الجهتين الداخليتين لزاوية قائمة، وقد كانت هذه النقوش قديماً إفريزاً لمعبد يوناني.. تحـــت هذه النقوش دهليز لا يزال يحتوي على قاعة كبيرة ينتصـــب في وســـطها عمود تعلوه جرّة من الفخار على شكل مبخرة لكني أعتقد بأنها مرمدة كان يتم وضع رماد الموتى فيها، وقد دمجت مع سور الحديقة أعمدة جميلة من الغرانيت الرمادي المائل إلى الأزرق أما في الضواحي فنجد فـــيها الكثير من الأعمدة، إما مدمجة مع أسوار مشادة من الحجـــارة الجافة وإما منغرزة في التراب، إلاّ أن الذي بقي ســـليماً دون مساس هو قوس النصر ومعبد باخوس وقناة جر مياه رومانية وهي آثار معروفة عدا هذا المعبد الجنائزي الصـــغير الـــذي يظهـــر هنا والذي يضيع وسط الحدائق بالإضافة إلى أن جزءاً لا بأس به مدفون تحت المترل..

وعـــلى بعـــد ثلاثة أرباع الساعة من الشمال الشرقي لضـــواحي اللاذقية سهل انتصبت فيه ثلاث أكمات من الـــركم الترابية تحتها ركيزة من الصخور الكلسية شديدة القســـاوة تغطـــي على الأقل مساحة تربو على ستة عشر

كيلو متراً مربعاً وتمتد شمالاً من الصويلحية وحتى أنطاكية.

كان هذا الامتداد الصخري العظيم فيما مضى مصقولاً وناعمـــاً أمـــا اليوم فإن السيول والأمطار ومجاري المياه حفـــرت أخاديد عميقة لتحول هذا السطح المصقول إلى ســـطح متصـــدع ومشقق وتواصل الكتلة امتدادها حتى الجنوب الشرقي من جهة «الصنوبر» لتشكل في نهاية الأمر نصف مخروط من الصخور القاسية التي تحيط باللاذقية.

شكل الركام المتكدس عند انحداراته على مدى العصور من الجهة الشمالية كتلة هائلة تشرف بأكملها من قاعدتها وحتى قمتها على البحر..

يقطع هذه الهضبة الصخرية مجريان أحدهما مجرى للنهر الكبير والآخر لنهر الصنوبر. حيث شكل الطمي المتراكم عـــند مصبهما حوضاً شديد الخصوبة تتسع حدوده أثناء الفيضانات شمالاً وجنوباً لتملأ كل الجيوب وكل انحناءات الركيزة الصخرية في الجنوب وعلى طول مصب نهر الكبير كانـــت الرياح الغربية تدفع الكثبان الرملية باتجاه الطمي القـــادم مـــن الأنهار والسيول ونحو الكتلة الصخرية التي

تشكلت الآن والتي تشكلت على مدى عصور كثيرة أول مدمـــاك في سلســـلة جبال العلويين.. لقد تعرضت هذه الكـــتلة فـــيما تعرضت ليد الإنسان التي عملت فيها شقاً وحفـــراً لبناء المدن والقبور لتعود هذه جميعها لتندثر من عـــلى سطحها وتختبئ معالم الحضارات المتعاقبة في مخابئ صنعها الإنسان ظاهرة أو مختفية في باطن الأرض.. والآثار الباقـــية مـــن تلك المدن المندثرة تغطي مساحة تزيد عن مساحة مدينة باريس..

القبور في هذه الأمكنة تشبه تلك التي رأيتها في الجبال.. وهي على شكل مجموعات، أو عبارة عن سراديب عديدة حيث يعلو كل باب يؤدي إلى المدافن قوس حجري حيث منه نهبط درجاً ومن حوله توزعت أو تجمعت القبور. فهي أحـــياناً ثنائية وأحياناً ثلاثية. بعضها على شكل مستطيل وتحمـــل على أحد أضلاعها الصغيرة تجويفاً نصف دائري يـــدل عـــلى مكان وضع الرأس، والبعض الآخر بيضوي الشكل، أما ما يلفت الأنظار هنا فهو أن القبور المستطيلة الشكل قسّمت طولياً إلى قسمين غير متساويين ويشكلان

أخدوديـــن: أحدهما عريض والآخر ضيق ويفصل بينهما حاجز صخري..

ويـــبدو أن الميت كان يوضع في الأخدود العريض أما الأخـــدود الضـــيق الذي يقع إلى يمين الميت فقد خصص للمتاع الذي سيرافقه في رحلته الأبدية. هذا المتاع متنوع: يحـــتوي عـــلى أسلحة وحلي وأغذية.. وهناك أيضاً إطار حجـــري يحيط باللحد ويميل إلى الضيق كلما ارتفع حتى يصـــبح فـــتحة صغيرة تتم تغطيتها ببلاطة حجرية تكون جاهزة لهذا الغرض، ومن المثير للانتباه أن هذه القبور المبنية داخـــل هـــذه الدهاليز اللحدية صفّت في باحة مستقيمة الأبعـــاد أو داخل جدران قاعة مستديرة يمكن الوصول إليها عبر ممر نحت في الصخر وللوصول إلى المدفن العائلي، يتوجب استخدام درج مكشوف يفضي إلى باب أو رواق تحـــت الأرض ومن ثم إلى رفوف مجوفة نحتت جميعها في الصخر وغصت بالقبور.

أمـــا القبور السطحية، العادية فقد لاحظت بأن هناك فتحة في الرمس الحجري من جهة الرأس، مستديرة قطرها

مـــن 6 إلى 8 سنتم وهي تصل مباشرة ما بين الجدث في الداخل وما بين الوسط الهوائي في الخارج.

وهـــذا الثقـــب نفســـه لاحظته في القبور الدارسة أو المنحوتة في الصخر.. هل هو المخرج الذي يسمح للروح بالانطلاق خارج جدثها أم مدخل لأصوات الأحياء كي تصـــل مسامع الجثمان المسجى داخل هذا القبر الحجري وهـــذه الفـــتحة هي نفسها التي لاحظتها في كل القبور الحجـــرية الصلدة.. كل هذه البلاطات التي تشكّل غطاء للفوهات اللحدية لفترة ما قبل التاريخ ثقبت جميعها بنفس الطـــريقة ومـــا يزال تركمانيو بحر قزوين كما هي حال أقاربهم في نواحي أنطاكية وكما العلويون، يثقبون البلاطة التي تطبق على قبورهم.

إحدى هذه المجموعات الرّمسية الأكثر تشويقاً في تلك المدينة البائدة كان لها شكل حوض مربع بطول ثلاثين متراً يمتد في جميع الاتجاهات ويرتفع عن الأرض حوالي الأربعة أمتار.. تربة حمراء تكاد تغطيه بجزئه الأكبر بسماكة مترين تقريباً. أما الجدار الذي يقابل جهة الشمال فقد نحت فيه

درج مـــا تزال سبع درجات فيه ظاهرة للعيان، وإلى يمين الـــدَّرج مباشرة تظهر حفرة مستطيلة الشكل على جهة الباب الغربية، وهناك درج من خمس عشرة درجة ينزل في الأرض ويـــؤدي إلى بـــاب يعلوه، كما هي العادة، عقد كامل ومنه يهبط الزائر رواقاً مائلاً يؤدي إلى قاعة دائرية قطـــرها عشـــرة أمتار.. وقد نصحت الأشخاص الذين يـــريدون زيـــارة المدافـــن تحت الأرضية للمناطق المحيطة باللاذقـــية بأن يتزودوا بعصاً قوية وبأن يضربوا الأعشاب الجافـــة وهـــم يسيرون قبل أن يهبطوا هذه المدافن تحت الأرضـــية. إذ أن هـــذه الأعشـــاب عادة ما تكون مرتعاً للـــثعابين ولـــن يضـــيرهم كذلك التسلح بمسدس، فقد يصـــادفون ضـــبعاً أو كلباً متوحشاً أو كلبة برّية ترضع صـــغارها، وقـــد يهاجمون قبل أن يستطيعوا إشعال عود ثقـــاب، والأخطر من هذا كله أن أسنان هذه الحيوانات الـــبرية الـــتي تقتات على الرِّمم والبقايا المتفسخة والقذرة يكمن فيها بالتأكيد خطر مميت.

على السطح، في الجهة المقابلة للمدافن إلى الغرب، امتلأ

سطح الصخرة بالقبور، إلا أن المجموعة الرئيسة فيها تقع في الجدار الذي تتجه واجهته إلى الجنوب وقد نحتت فيه حجرات جنائزية يفصلها عن بعضها حواجز صخرية نحتت أيضاً جميعها في الصخر.

وعلى يمين ويسار هذه الحجرات ثلاثة أطر حفرت في الصخر وهي تحمل بقايا نقوش كانت من الخشونة بحيث يصعب تمييز أي شيء فيها.

هكذا بدت لي بصورة عامة مدينة الأموات هذه والتي تأثرت أقسام عدة منها بعوامل الزمن كتلك التي وصفتها لكم، إلا أنه من السهولة بمكان إعادة ترميمها وتجديدها.

من المؤكد أن الأموات كانوا يودعون في قبورهم المنحوتة تبعاً لقياساتهم ، هل هي فينيقية؟ أشك في ذلك لأنها لا تشبه بشيء قبورالفينيقيين التي نراها في صور وصيدا وأرواد، دون أن يكون هناك أي إشارة تضيء هذا الاستنتاج، علماً أن هناك مدافن كثيرة شبيهة لها في سوريا وآسيا الصغرى، وكما قيل لي فإن هناك قبوراً على شاكلتها، في مناطق البحر الأسود.. وأخيراً، فإن الشكل

المقبب والمقوس يشبه بشكل خاص تلك المقابر التي تخص مقابر المقدونيين إلا أنني أعود وأقول بأنني حيثما أرى هذا النوع من المدافن الحجرية فإن الجنس البشري الذي كان يعيش من حوله يتميز ببشرة فاتحة وشعره يميل إلى الشقرة، والرأس يميل إلى القصر الشديد مع انخفاض واضح وغريب لقفا الرأس، وقد لاحظت بأن جماجم العلويين التي جلبتها معي تتقارب إلى حدٍّ بعيد مع الجماجم الألبانية تلك التي أخـــذ مقاييســـها الســـيِّد «ويرشو».. وكي لا أتوه في التفاصيل التي لا مجال الآن للخوض في غمارها فإنني أعتقد جازمـــاً بأن هذه المدافن هي إنجاز جنسٍ ساد وعمّ منطقة كـــبيرة من سوريا، ومن آسيا الصغرى ومقدونيا واليونان وأنـــني لمتأكد من أن العلويين هم اليوم أحفاد ذاك الجنس لـــذي كان يسميه اليونانيون بـــ«آل البنائين» وقد نرى تسميات كثيرة لهذا الجنس البشري تذكرها الآثار المصرية والتي يمثل دلالتها بشكل كبير وبنفس المستوى، العلويون..

هل يمت السومريون بصلة للبنائين؟ لا يسعني هنا ذكر شئ حول ذلك لضيق المجال.

إن المجموعــة الجنوبية للمدافن تتميز بناووسين (تابوتين حجــريين) رائعــي الجمــال، ملمسهما خشن وتزينهما منحوتات تطغى عليها ملامح الفن اليوناني. وزيارتنا لتلك المدافــن الــتي تبعد حوالي ثمانية عشر كيلو متراً جنوب اللاذقية، بالقرب من منطقة الصنوبر، لا تستحق أن يكون المــرء لا مبالياً تجاهها.. لقد ذهبنا إليها في الصباح الباكر وبصحبة مسلية:

السـيّد «جـيوفري» والــرجل الفاضــل الســيد «بروزوزوســكي» وهــو البولوني الذي خطط لتمديد الخطــوط الــبرقية في آسيا الصغرى وهو في مجال المسح كالمــزولة وفي مجال الأدب علاّمة، وفي مجال الشعر شاعر من الطراز الرفيع والأغرب من كل ذلك أنه صياد لا يُشَقُّ له غبار. وقد عاش ثلاث سنوات في «كردستان» قضاها كاملــة في الصيد.. ولهذا فهم ينادونه هنا بــ «عق بابا» وهي كلمة تركية تعني «الأب العجوز الأبيض» و ترجمة حرفــية لمــا يطلــق على النسور الطاعنة في السن. أما التركمانــيون فقــد دعوه بــ«كارا اوتشي» أو «الصياد

الأســـود» وأنـــا أســـتغل مناسبة ذكر اسمه لأخص بكل الامتنان والشكر والتقدير هذا الرجل المثقف جداً والهادئ والمتواضع جداً والمقدام جداً..

وقـــد رافقنا أيضاً في هذه الرحلة «يوسف الفاضل». كان الصياد الأسود يقودنا نحو النواويس الحجرية التي كان قـــد اكتشـــف وجودها سابقاً عندما كان يصطاد أحد الخنازير البرية. كنت أسير إلى جانبه وقد أسرني حضوره إلى درجة أنني لازمته كظله في كل مساراتنا ونحن نتبادل ذكرياتـــنا في الحرب ونغوص في أحاديث حول مواضيع جمالـــية.. إذ لا شيء يخفف من وطأة السير ومشقاته في هذه الأمكنة سوى الحديث عن الفن وخصوصاً إذا كان المتحدث بارعاً ومختصاً في هذا المجال كما هو شأن الصياد الأسود.

أخذتنا الأحاديث إلىحد أننا تهنا وسط الأعشاب. أما الأســـئلة الـــتي كـــان يلقيها «يوسف فاضل» على أحد العلويـــين فـــلم تكن بحال من الأحوال من الأهمية بحيث تعـــيدنا إلى الطريق الصحيح. وقد انتبهت إلى أن العلوي

الذي كان يجوب المنطقة والذي كان يتحدث إليه يوسف فاضل، كان يسير دون يطاقانه وهو أمر نادر الحدوث..

بينما كنا نصعد سفوح الجوبة حيث تقع تلك القبور فوجئنا بظهور بضعة قرويين أشداء من بين الأشجار الكثيفة، واليطاقانات والمسدسات تزين خصورهم، وقد فوجئوا هم أيضاً بظهورنا، إذ بدا على وجوههم سيماء من كشف بالجرم المشهود إلا أهم ساعدونا في الوصول إلى القبور لتصويرها.

هذه المدافن المميزة تتقاطع بلونها الرمادي مع اللون الأزرق الصافي للسماء وسط مرج أخضر.. وهي بالتأكيد تشكل قسماً من مجموعة مدافن وقد التصق هذا القسم بأحد أوجه المجموعة ذلك أنه كان هناك وجه لا يحمل أي نحت كان .

وعلى بعد ثلاثين متراً من هناك شاهدنا آثاراً لأسوار مبنية من الحجارة العشوائية غير المقطوعة، و عثرنا على قطعة «فخار» تشابه تلك التي رأيتها في مدافن «القرداحة».

كنت نهباً للأفكار بشأن هذه المدينة المندثرة والتي لا بد

وأن يـــأتي الـــيوم الذي تعود فيه إلى النور مجدداً، عندما تعثرت وأصيب كاحلي.. كان الألم يتعاظم حتى أجبرت عـــلى التمدد، إلا أنني على موعد مع عشرين شيخاً من شيوخ العلويين في الصنوبر لأنهم لا يستطيعون الذهاب إلى اللاذقـــية، لقد قدموا جميعاً من مختلف الأنحاء لتوديعي.. وهكذا عدت وامتطيت حصاني رغم الأوجاع.. كان أحد جنود القنصلية ويدعى فارس قد سبقنا منذ الصباح الباكر ليزودنا بكل ما نحتاجه من المؤن الضرورية..

كـــنا أول الوافدين إلى الموعد المنتظر حيث جهزوا لنا بساطاً مدّ في ظل شجرة تين برّية. وبعد قليل وفد الشباب والنســـاء مـــن القـــرية، ومن بين الشباب الابن الأصغر «لـــبطرس أبو سليم»، شديد الاختلاف عن أخيه البكر المرافق السياسي.. إنه شاب في السادسة عشرة قوي البنية، وقـــد لـــف كوفيته وربطها بقوة على رأسه، ومسدساته علقها على حزامه أما بندقيته فقد علّقها على كتفه. وقد سارع مع بضعة شبان ونساء إلى جمع الحطب، ثم أشعلوا الـــنار ووضعوا دست الماء ليغلي.. ثم ذبحوا خروفاً، وبعد ربـــع ســـاعة من وصولنا، كان بإمكاننا الاسترخاء على

بساطنا وأخذ قسط وافر من الراحة والتسلية ونحن نشاهد تصاعد الدخان الأزرق من مأدبتنا.

وكما لو أن رائحة الطعام جذبت مضيفينا، فما لبثنا أن رأينا بعض العلويين يهبطون راجلين منحدرات إحدى التلال القريبة، والبنادق تبدو من وراء ظهورهم، وراء بعضهم البعض يتصدرهم الأمير إسماعيل وتسعة عشر من أسياد «الكلبية»، ومن «بيت الشلف»، ومن «بني علي» ومن «بيت ياشوط».. كانوا يمتطون أجمل الجياد، ويتزينون بأسلحة جميلة، ويرتدون أجمل ملابسهم.. عندما اقتربوا من مجلسنا، نزلوا عن خيولهم وأسرعوا بمدّ أيديهم للسلام علينا.. وقد تعرفت فوراً على ولدين من أبناء زوجة الأمير إسماعيل، وعلى «مهنّا» والصديق «كنجو» الذي جاء ليجلس بجانبي بكل حميمية.. ومن بين الجموع بدا المارد «حسان أغيس» برفقة الفراري المحبوب.

لم أحاول الخوض في أحاديث ذات مواضيع سياسية كي لا ينتهي الأمر بالتحدث همساً في الأذن. إذ أن الشرقيين يهوون الغموض، الأمر الذي يمنعهم من البوح

جهـــراً بالأفكار السياسية. ولكن، أعترف بأنني لن أغادر هـــؤلاء الرجال الأشداء دون أن أشعر بغصّة، إذ أنه ليس هناك من شعب في سوريا يستحق الفائدة والخير أكثر من هذا الشعب الشريف والقوي، والذي يصبو بكل جوارحه إلى الحضـــارة والذي يحترم ذاته، والذي بقليل من الدعم الأوروبي فإنه كان بكل تأكيد سيُعّلم الشعوب التي تحيط به كيف تحترم نفسها..

- أنـــت راحـــل إذاً.. قال لي إسماعيل. إقامتك بيننا كانـــت أشبه بالحلم.. أخبرهم في فرنسا بأننا موجودون، وبأن آلامنا تستحق أيضاً تعاطف الفرنسيين كما يستحقها اللبنانيون السعداء.

- سعداء؟ لأن لديهم فكراً جامداً وشرطة غبية..

وهـــنا، لاحظ «كنجو» بأنه لم يعد لديه قطرة عرق.. فاتجـــه ناحية الغيضة المشجّرة قرب المطبخ، حيث بدا لي بقدر ما كان يمكنني رؤيته عبر الأبخرة المتصاعدة.. ثم عاد يتصدر المأدبة..

انـــتهى الطعام.. وبدأت العناقات والقبلات بيننا.. ثم

صـــعدنا جيادنا.. العلويون ليعودوا إلى الجبال ونحن كي نـــترل إلى اللاذقية. وقد رافقنا الشاب ابن أبو سليم الذي اعتـــلى فرســـاً، أما المارد العملاق «حسان أغيس» فقد ركب بغلة. وعند المساء اضطرتني آلامي الحادة التي عانيت مـــنها إلى الـــترول عن حصاني والتمدد قليلاً في تجويف صخري.. لم يبقَ على قمة الجبل سوى البغال يحرسها أحد الفلاحـــين.. مـــرّ بعض أفراد الدرك الأتراك.. في طريق عودهمـــم، لم يلاحظـــوا الفرصة النادرة التي سنحت لهم للاستيلاء على دوابنا بحجة المصادرة.. وأعتقد بأن الأعلام الفرنسية التي ارتفعت فوق بعض البنادق جعلتهم يتحولون عن هذا الصيد الثمين. وقد حاول أحدهم الإمساك برسن إحدى الدواب إلاّ أن «يوسف فاضل» عاجله بضربة من هراوة لا أدري من أين حصل عليها، فأصابه بين ضلوعه، وأطـــبق على الآخرين فأسقطهم عن جيادهم.. وقام ممثلو السلطة التركية الباقون، بإعادة رفاقهم المتضررين وحملوهم عـــلى خيولهم، أما نحن فقد أسرعنا الخطى باتجاه اللاذقية غير متأكدين من عاقبة عملنا، وانتظرنا حتى هبط الليل إذ

كان هناك اثنا عشر دركياً تركياً يكمنون في الدغل الشوكي متسلحين ببنادق «الونشسقر» الخفيفة والتي كانت باستطاعتها وبخفة أن تجعلنا ندفع بطلقة واحدة ثمن الهراوة التي وجهها يوسف لزملائهم الدرك وقد تخلصنا من الهواجس التي استولت علينا بأن ألصقنا التهم بالعلويين أو بالشراكسة كي نبدد الاتهام.

وصلنا شاطئ البحر عندما أظلم الليل عند معبر «النهر الكبير» حيث غرقت إحدى البغلات في وضح النهار خلال الشهر الماضي.. وكان علينا اجتياز المكان على الضوء المخادع للنجوم ولحسن الحظ. لم يكن هناك ضباب ذلك أن وجوده هو ظاهرة اعتيادية وخصوصاً ليلاً عند مدخل النهر الكبير. وما يجعل المعبر خطيراً هو ضيقه الشديد الذي لا يزيد عن المتر وخمسين سم. وهو ما يجعل المرء يضطر للعبور بحراً، وعند مدخل النهر بدا لي بأنه لا يوجد إلا طبقة رقيقة من الماء والتي عبرها نرى الرمل.. إلا أنه رمل مخادع.. إنه طين متحرك يبتلع من دون أدنى شك أي متهور يضع فيه قدمه.. كان عسس الشاطئ ينتشر يميناً

ويســـاراً. علينا تجنبه ولقد نجحنا في ذلك لحسن الحظ.. وبكـــل شجاعة ومهارة دفع يوسف بحصانه إلى البحر.. كان في المقدمة وكنا نحن نتبعه صفاً.. تجاوزنا المنطقة دون حادث رغم العناد الذي يتمتع به حصاني الغبي.. الذي لا ينفك يريد الشرب.. من ماء البحر!! فلقد خدع الأحمق بمـــا كنـــت قد استبدلته من السيد «جيوفري»، خدع بالخفين بدل جزمتي التي تعود على رؤيتها واللفافتين اللتين استعرتهما من صديقي السيد جيوفري لألفهما حول ساقي كي لا تحتكا بالسرج.. ولقد خدع كذلك بأنني لم أمسك بسوطي ولا بأي قضيب.. وبالمختصر المفيد بصعوبة بالغة اســـتطعت قـــيادته في الطريق السليم وخلصته من الغرق الحـــتمي..كانت الأحصنة تجلجل على الطريق المرصوفة تحت قباب الممرات التي تتميز بها مدن الشرق..

قـــبل أن أغادر اللاذقية على متن المركب «ايبر» أدين بذكـــرى أخيرة لبعض الشراكسة الشرفاء الذين كانوا قد جـــاؤوا لزيارتي أنا والسيد «جيوفري». وقد قمنا بجمع تـــبرعات لصـــالح المهاجـــرين، أما الشراكسة المهتاجون

والصــاخبون في وجه السلطة التركية فقد كانوا من جهة أخرى يكنون كل الاحترام والتقدير للسيد «جيوفري».. وعندما قمنا بتقديم التبرعات لرئيس المجموعة لاحظت من لكنــته ومــن حركاته بأنه من سكان «سفين» في أعالي الأوديــة و«سفين» هذه من العشائر القلائل التي كانت دراستها قليلة، وهذه العشيرة نموذج لأكثر العشائر قدماً في القوقاز.. قلت للرجل:

- اذهــب وأحضــر الشباب واطلب منهم أن يحملوا أســلحتهم وعند عودتك ستراني هنا بعد ساعتين.. فأنا أحتاجك لأمر!

- يا خي(3)! (حسن جدا).

وقبل أن يخرج سأل بصوت منخفض:

- هل المكان بعيد؟

قلت له:

- كلا - إنه هنا!

---

3. كلمة شركسية وتركية من آسيا الوسطى. وفي العثمانية يقال: «بك كوزال» او «عفارم».

- كيف هنا؟ أجاب رئيس المجموعة الشركسية بدهشة عظيمة:

- والله العظـــيم هـــنا.. كي آخذ قياسات جسمك وتصويرك أنت والبقية..

همهـــم الرئـــيس ببضع كلمات من بين أسنانه وغادر وسيماء الشك بادية على وجهه.. لقد ظن للوهلة الأولى بأنني كنت سأرسله هو ورفاقه الشباب ليقوموا بعملية ما على إحدى الطرق الرئيسة..

- يا خيّ!

أية خيبة أمل أصابته.

هكـــذا كانـــت الـــتوديعات التي جرت مع أصدقائي الشراكسة الأعزاء..

ليون كاهون

باريس

1878

ملحق الصور



عيد في رحاب العلويين – رسم ل ف ريجامي بوحي عن نص ومخطوطات للمؤلف 1878 م



الكمين - رسم ل ف ريجامي بوحي من النصوص وصور الفوتوغرافية 1878م



كنجو وابنه - رسم ل أ فردينا نديس نقلاً عن صورة للمؤلف 1878م



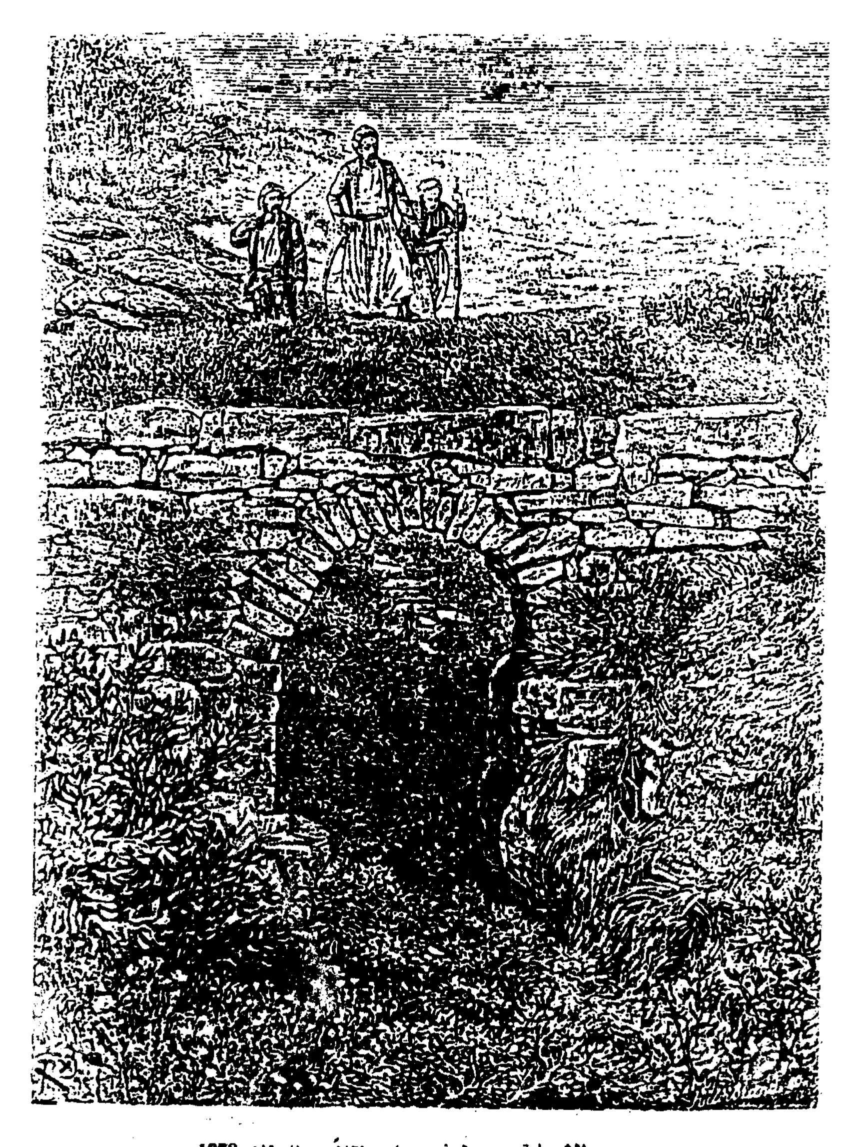
حامد وحسان اغيس رسم ل أ فربينا نديس نقلاً عن رسم للمؤلف 1878م



إمرأة من قلليني – رسم ل ف ريجامي نقلاً عن رسم للمؤلف 1878م



مهنا وابن أخيه - رسم ل أ فردينا نديس نقلاً عن صورة للمؤلف 1878م



جسر الشحادة - رسم ل ف ريجامي نقلاً عن للمؤلف 1878م



الجْريد - رسم ل. ف ريجاسي بوحي من النص وإشارات المؤلف 1878م



لم أحاول الخوض في أحاديث ذات مواضيع سياسية كي لا ينتهي الأمر بالتحدث همساً في الأذن. إذ أن الشرقيين يهوون الغموض ، الأمر الذي يمنعهم من البوح جهراً بالأفكار السياسية.

ولكني أعترف بأنه ليس هناك من شعب يستحق الخير أكثر من هذا الشعب الشريف والقوي ، والذي يصبو بكل جوارحه إلى الحضارة ويحترم ذاته، كما أنه بقليل من الدعم الأوروبي سيُعلّم بكل تأكيد الشعوب التي تحيط به كيف تحترم ذاتها .

ليون كاهون
باريس 1878م